المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا وجد المختصون في علم ما فائدة ومتعة حين يخلون بأنفسهم إلى تراجم من سبقهم في هذا العلم، فإن متعتهم بتاريخ العلم نفسه أحفل وأعظم.

إننا نثني عادة على من يؤلف كتاباً في حياة عالم، إذ يتيح لنا أن نعايشه فنعاين جده ودأبه، ونلذ نضاله لكشف الغامض ودفع العلم إلى الأمام ولو خطوة، ونجد الأسوة في استهانته بالعراقيل والمعوقات، ووقوفه للزمان والحساد والخصوم والجاهلين، وإن في حياة كل عامل من هذا لنصيباً. لذلك نشكر لهذا المؤلف ما يسر لنا من لذائذ سامية.

لكن المسهم في تاريخ العلم لا يحصل على الشكر والثناء في وقت قصير، وقد يقتضيه سطر واحد يخطه في تاريخ العلم من الجهد وطول العمل ما لم يعانه المؤلف الأول في مجلد. ومن ظن أن حياة باحث تفي بتاريخ علم فقد ظن باطلاً، إنما يتم ذلك بتضافر جهود الباحثين في أجيال متلاحقة: يتسلم كل جيل تراث من قبله، ويعمل في دأب وروية ليتقدم به قليلاً أو كثيراً. وموضوعنا في هذه الدراسة: من تاريخ النحو العربي.

وبعد، فماذا يراد من كلمة (مذهب) أو (مدرسة) حين يقال في علوم اللغة العربية: مذهب البصريين أو مدرسة الكوفيين؟

إن نظرة فاحصة في دراسات المحدثين تقودنا إلى الشك في بعض ما عدوه من المسلمات انسحاباً على أذيال القدماء ممن تكلم في النحو والنحاة.

لقد أدار هؤلاء التصنيف على البلدان فقالوا: ((نحاة الكوفة)) و ((نحاة البصرة)) و ((نحاة بغداد)) حين ألفوا في الطبقات. فساق هذا - مع تساهل كبير - إلى أن قيل فيما بعد: ((مذهب البصريين)) و ((مذهب الكوفيين)) و ((مذهب البغداديين)).

وقد حان الوقت لتصحيح هذه التسمية، فالأقدمون ومن تأثر بنظرتهم من المحدثين جعلوا البصريين أهل القياس، لأن من ضبطه منهم كثيرون جداً ولهم فيه عناية بالغة، على حين عدوا الكوفيين أهل سماع، لأنهم سجلوا كل ما سمعوا، وأراغوا القياس عليه فلم يحكموه إحكام الأولين وإن أربوا عليهم في السماع مقداراً لا ضبطاً وجودة.

* * *

هذه الصفحات محاولة في وضع الأمور في نصابها حيال ما يسمى بالمدارس أو بالمذاهب النحوية من جهة، ووقفة تاريخية فاحصة متروية عند نشأة هذا الفن من جهة أخرى.

والفن أو العلم كائن حي يخضع له الأحياء من سنن الحياة: يبدأ جنيناً فرضيعاً فطفلاً فيافعاً ففتى فشاباً...

وحول نشأة النحو بعض غموض اجتهدت في جلائه بما لدي من أضواء، ممتحناً الأخبار والروايات، متحرياً فيها ما يشبه الحق وطبيعة الأشياء؛ حتى إذا اطمأننت

إلى نتيجة أثبتها بعد امتحانها، ضارباً صفحاً عن سطحيات وعناوين وتهاويل كثيرة يسميها أصحابها دراسات، الموضوع منها والمترجم سواء.

ورأيت أن ألحق بهذه الدراسة نصوصاً مختارة لستة مؤلفين عظام في هذا الفن، تقوم كتبهم معالم في طريقه الطويلة، مع موجز من تراجمهم كما وردت في (بغية الوعاة) للسيوطي، مع اختصار أحياناً، وتعريف يسير بكتبهم التي اخترنا منها نصاً أو أكثر[1]، بحيث تتبين للمطالع ملامح واضحة من الطريق الذي شقه النحو على مدى العصور. وسيعجب القارئ حين يرى أنه بدأ بقمة شامخة هي كتاب سيبويه، ثم أخذ ينحدر مع الزمان... ظاهرة غريبة لا أعرف لها مثيلاً في تاريخ العلوم والفنون.

ولئن أسعف هذا الملحق من يبتغي النظرة العجلى، إنه لن يغني بحال عن الدراسة الشخصية المتوسعة المتأنيّة التي يجب أن يقوم بها مستقلاً الباحث أو الطالب الجامعي: إمعان في الآثار وتأنٍ في استنباط النتائج، وصبر على ما يتطلبه البحث من جهد ووقت.

والله المسؤول أن يأخذ بأيدينا ويسدد خطانا في خدمة العلم الخالص: متعلمين ومعلمين.

بيروت: الجامعة اللبنانية (قسم اللغة العربية)

سعيد الأفغاني

توطئة تاريخية

جاء الإسلام واللغة العربية مستكملة أدوات التعبير، ولها تراث أدبي حافل مفصح عن شتّى المشاعر الوجدانية والاجتماعية، قد اتفقت الكلمة على الاعتداد بهذا التراث والإعجاب به منذ عصر الجاهلية حتى اليوم.

والعرب أمة فصاحة وبلاغة وتتأثر بالبيان الرفيع والجملة الوجيزة الموحية، وكانت أسواق العرب في جاهليتها قد قامت بالاصطفاء من لغات القبائل[1]، وأخذ الشعراء والبلغاء أنفسَهم بما أجمعوا على استحسانه منها حتى تنافسوا في ذلك، وأصبحت هذه اللغة المصطفاة هي المتفق على التعبير بها عمّا يخالج النفوس من أغراض وأحاسيس. وصرنا نسمع شبه هذا الإجماع على سلامة لغة قبائل الجزيرة، والطعن بلغات أهل السواحل لمخالطتهم الأجانب في الأسفار والتجارات.

---

[1] مراعين في اختيارها حاجة الدارسين في شهادة (فقه اللغة العربية) في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية.

(١) انظر في كتابنا (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام) فصل سوق عكاظ.

فلما كانت الفتوحات واختلاط العرب الفاتحين بالشعوب التي كانت تحت سيطرة الفرس والبيزنطيين والأحباش، ودخول كثير من هؤلاء في الإسلام، واضطرارهم إلى تعلم ما استطاعوا من العربية، وكان بين العرب الفاتحين وهؤلاء الشعوب اختلاط وأخذ وعطاء، تسرب الفساد إلى لغة كثير من العرب، وبدأ يُسمع لحن في التخاطب، قليلاً في الأول، ثم أخذ في الانتشار حتى لفت إليه أنظار المسؤولين وغيرهم من أهل الحل والعقد.

يعتبر اللحن الباعث الأول على تدوين اللغة وجمعها وعلى استنباط قواعد النحو وتصنيفها؛ فقد كانت حوادثه المتتابعة نذير الخطر الذي هب على صوته أولو الغيرة على العربية والإسلام، ولا بأس من عرض تاريخي سريع لبعض أحداثه المتتابعة:

بوادر اللحن

بدأ اللحن قليلاً خفيفاً منذ أيام الرسول على ما يظهر، فقد لحن رجل بحضرته فقال: ((أرْشدوا أخاكم فإنّه قد ضَلَّ))[1] والظاهر أيضاً أنه كان معروفاً بهذا الاسم نفسه (اللحن) بدليل أن السيوطي روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: ((أنا من قريشٍ ونشأتُ في بني سعدٍ فأنَّى لي اللحن))[2] وقد كان أبو بكر الصديق يقول: ((لأن أقرأ فأسقط أحبُّ إليَّ من أن أقرأ فألحن)).

فإذا بلغنا عهد عمر رأينا المصادر تثبت عدداً من حوادث اللحن، فتذكر أنَّ عمر مر على قوم يسيئون الرمي فقرّعهم فقالوا: ((إنّا قوم متعلمين)) فأعرض مغضباً وقال: ((واللهِ لخطؤكم في لسانكم أشدُّ علي من خطئكم في رميكم)) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((رحمَ الله امرأً أصلح من لسانه))[1].

وورد إلى عمر كتاب أوله: ((من أبو موسى الأشعري)) فكتب عمر لأبي موسى بضرب الكاتب[2] سوطاً. والأنكى من ذلك تسرب اللحن إلى قراءة الناس للقرآن، فقد قدم أعرابي في خلافة عمر فقال: ((من يقرئُني شيئاً مما أُنزل على محمد))؟ فأقرأه رجل سورة براءة بهذا اللَّحن:

((وأذَانٌ مِنَ اللهِ ورَسولِهِ إلى النَّاسِ يَومَ الحَجِّ الأكْبَرِ أنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ المشركينَ ورَسولِهِ..)). فقال الأعرابيُّ: ((إنْ يكنِ اللهُ بريءَ من رسوله فأنا أبرأُ منه))، فبلغ عمرَ مقالةُ الأعرابي فدعاه فقال: ((يا أمير المؤمنين، إنّي قدمت المدينة..)) وقصَّ القصة فقال عمر: ((ليس هكذا يا أعرابي)) فقال: ((كيف هي يا أمير المؤمنين))؟ فقال: {أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ} [التوبة: ٣/٩]، فقال الأعرابي: ((وأنا أبرأ ممن برئ الله ورسوله منهم)). فأمر عمر ألاَّ يقرئ القرآن إلاَّ عالم باللغة))[1].

---

(١) الخصائص لابن جني ٨/٢ (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠) وروي في إرشاد الأريب عن عبد الله ابن مسعود ٨٢/١

(٢) المزهر للسيوطي ٣٩٧/٢ طبعة (دار إحياء الكتب العربية – القاهرة. بعناية محمد أحمد جاد المولى ورفيقه)، ورواه السيوطي في الجامع الصغير عن الطبراني وقد ضعّفه المحدثون.

(١) إرشاد الأريب ٦٧/١ مطبوعات دار المأمون، والأضداد لابن الأنباري ص٢٤٤ طبع حكومة الكويت.

(٢) هو أبو الحصين ابن أبي الحر العنبري كما في وفيات الأعيان (٥/ ٩٩)، وكان أبو موسى قد استكتبه بعد زياد.

(١) نزهة الألباء ص٧ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١١٠/٧ مطبعة الترقي بدمشق ١٣٥١هـ وانظر الخصائص لابن جني ٨/٢ وعيون الأخبار، وانظر مراتب النحويين ص١٨. هذا وروايات اللحن في هذه الآية لا تتفق على وتيرة، فمنها ما يجعل هذه القصة في زمن زياد، وأن زياداً هو الذي طلب من أبي الأسود وضع شيء يقيم عوج الألسنة اللاحنة فأبى أبو الأسود ((فبعث زياد رجلاً يقعد لـه بطريقه، وأمره أن يقرأ شيئاً من القرآن ويتعمد اللحن، فقرأ: ((... أن الله بريء من المشركين ورسوله..)) بالجر، فاستعظم

ولعمر تنسب تلك القولة المأثورة: ((تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة))[٢].

ومر عمر برجلين يرميان فقال أحدهما للآخر: ((أسبت)) فقال عمر: ((سوء اللحن أشدُّ من سوء الرمي))[٣] فجعل إبدال الصاد سيناً من اللحن.

وتكاد قصة بنت أبي الأسود تكون المعْلم المشهور في تاريخ النحو: فقد دخل عليها أبوها في وَقْدة الحر بالبصرة فقالت له: ((يا أبتِ ما أشدُّ الحر))! رفعت (أشد) فظنها تسأله وتستفهم منه: أيُّ زمان الحرّ أشدُّ؟ فقال لها: ((شهرا ناجر)).

فقالت: ((يا أبت إنما أخبرتك ولم أسألك))[٤].

ونتقدم خطوة في الزمن فيقص علينا ابن قتيبة أن رجلاً دخل على زياد فقال له: ((إن أبينا هلك، وإن أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا)) فقال زياد: ((ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضاع من مالك)) وأن أعرابياً سمع مؤذناً يقول: ((أشهد أن محمداً رسولَ الله)) فقال: ((ويحك، يفعل ماذا؟))[١].

وأن أعرابياً دخل السوق فسمعهم يلحنون فقال: ((سبحان الله! يلحنون ويربحون، ونحن لا نلحن ولا نربح!)).

وروى الجاحظ أن أول لحن سمع بالبادية: هذه عصاتي (بدل عصاي) وأول لحن سمع بالعراق: حيٍّ على الفلاح (بكسر الياء بدل فتحها)[٢].

ثم شاع في العصر الأموي حتى تطرق إلى البلغاء من الخلفاء والأمراء كعبد الملك والحجاج. والناس يومئذ تتعاير به، وكان مما يسقط الرجل في المجتمع أن يلحن، حتى قال عبد الملك وقد قيل له: ((أسرع إليك الشيب)): ((شيبني ارتقاء المنابر مخافة اللحن))[٣]. وكان يقول: ((إن الرجل يسألني الحاجة فتستجيب نفسي لـه بها فإذا لحن انصرفت نفسي عنها))[١]، وكان يرى اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب النفيس[٢].

ذلك أبو الأسود وقال: ((عز وجه الله، إن الله لا يبرأ من رسوله)) ثم رجع من فوره إلى زياد فقال: ((يا هذا قد أجبتك إلى ما سألت)) انظر كتاب (ألف باء) للبلوي ٤٦/١. ولا يبعد الجمع بين الروايات.

(٢) إرشاد الأريب ٧٧/١ وفي ص (٧٨) أنَّ الزهري كان يقول: ((ما أحدث الناس مروءة أحب إلي من تعلم النحو)). هذا وقد زعموا أن عمر ابن الخطاب كان يضرب أولاده على اللحن ولا يضربهم على الخطأ (ص ٧٩) وأن ابنه عبد الله كذلك (ص ٨٩).

(٣) البخاري في (الأدب المفرد) ص ٢٢٧.

(٤) وتتمة الخبر في الأغاني للأصفهاني (١١/ ١٠١): أنه دخل على أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب فقال: ((يا أمير المؤمنين ذهبت لغة العرب لما خالطت العجم، وأوشك إن تطاول عليها زمان أن تضمحل)) وأخبره خبر ابنته.. فأملى عليه: أن الكلام كله..

لا يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى) وهذا القول أول كتاب سيبويه. ثم رسم أصول النحو كلها فنقلها النحويون وفرعوها. اهـ قلت: هذه إحدى روايات مشهورة في أولية النحو، وبعد ضفحة نجد أبا الفرج يروي عن ابن أبي الأسود قوله: ((أول باب وضعه أبي من النحو: التعجب)).

وفي الحادث الذي حفز أبا أسود على وضع ما وضع روايات عدة قد يأتي بعضها في بحث الخلاف، وانظر واحدة يرويها الزبيدي في كتابه طبقات النحويين واللغويين ص١٥ وفي النفس شيء من نسبة الأولية في وضع النحو وسائر العلوم لعلي ابن أبي طالب.

(١) عيون الأخبار ١٥٩/٢. ومر أبو عمرو ابن العلاء بالبصرة فإذا أعدال مطروحة مكتوب عليها: (لأبو فلان) فقال: ((يا رب يلحنون ويرزقون)) إنباه الرواة ٣١٩/٢.

(٢) البيان والتبيين ٢١٩/٢.

(٣) مخطوطة الظاهرية من تاريخ دمشق لابن عساكر رقم ٢٢ تاريخ ج ٥ الورقة ١/٤٩٠.

(١) من رسالة للجاحظ في صناعة القواد، ص ٢٦٠ (رسائل الجاحظ) جمع السندوبي.

(٢) عيون الأخبار ١٥٨/٢ ومن قول ابنه مسلمة: ((اللحن في الكلام أقبح من الجدري في الوجه)).

والحجاج على أنه من الخطباء الأبيناء البلغاء، كان في طبعه تقزز من اللحن أن يقع منه أو من غيره، فإذا وقع منه حرص على ستره وإبعاد من اطلع عليه منه، ذكروا أنه سأل يحيى ابن يعمر الليثي: ((أتسمعني ألحن على المنبر))؟ فقال يحيى: ((الأمير أفصح الناس إلاّ أنه لم يكن يروي الشعر)) قال: ((أتسمعني ألحن حرفاً))؟ قال: ((نعم، في آي القرآن)) قال: ((فذاك أشنع، وما هو))؟ قال تقول:

{قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة: ٢٤/٩]. تقرؤها (أحبُّ) بالرفع، فأنف الحجاج أن يطلع له رجل على لحن فبعث به إلى خراسان. وكان الحجاج يعجب بفصاحة يحيى هذا فسأله يوماً: ((أخبرني عن عنبسة بن سعيد: أيلحن))؟ قال: ((كيف ذلك؟)) قال: كثيراً، قال: ((أفأنا ألحن))؟ قال: ((لحناً خفيفاً))، قال: ((تجعل أن: إن، وإن: أن، ونحو ذلك)). قال: ((لا تساكني ببلد، اخرج))[٣]، وكان الرجل إذا أراد أن يفلت من عمل للحجاج عاذ باللحن فنجا[١].

وهؤلاء تطرق إليهم قليل من اللحن لبعدهم عن قومهم في الجزيرة مع أنهم نشؤوا فيها وترعرعوا واكتهلوا، فلما كان مَن بعدهم عظم فشوُّ اللحن فيهم، حتى كان من أعظم المصائب في نفس عبد الملك أن ابنه الوليد لحانة، وأنه أخذه بتعلم العربية فلم يفلح. ونقلوا عن عبد العزيز ابن مروان الأمير الأموي المعروف، وهو أخو عبد الملك لحناً، على أن عبد العزيز هذا وهو من أفصح الناس كان يعطي على العربية ويحرم على اللحن، حتى قدم عليه زوار من أهل المدينة وأهل مكة من قريش، فجعل يقول للرجل منهم: ((من أنت؟)) فيقول: ((من بني فلان)). فيقول للكاتب: ((أعطه مئتي دينار)). حتى جاءه رجل من بني الدار فقال: ((من أنت؟)) فقال: ((من بنو عبد الدار)) فقال: ((تجدها من جائزتك)) وقال لكاتبه: ((أعطه مئة دينار))[١].

---

(٣) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٦٥/٤ (روضة الشام ١٣٣٢هـ) وطبقات النحويين واللغويين ص٥.

ذكر ابن قتيبة: أن الحجاج أمَّ قوماً فقرأ ﴿ والعاديات ضبحاً﴾ وقرأ في آخرها: {أن ربهم بهم يومئذ لخبير} بفتح همزة (أن) ثم تنبه على اللام في (لخبير) وأن (أن) قبلها لا تكون إلاّ مكسورة فحذف اللام من (لخبير) فقرأ ﴿أن ربهم بهم يومئذ خبير﴾ . – عيون الأخبار ١٦٠/٢. ومع هذا فقد روي عن الأصمعي قوله: أربعة لم يلحنوا في جد ولا هز: الشعبي وعبد الملك والحجاج ابن يوسف وابن القرية، والحجاج أفضلهم – أمالي الزجاجي ص١٥.

(١) في إرشاد الأريب (٨٧/١): بعث الحجاج إلى والي البصرة: أن اختر لي عشرة ممن عندك فاختار رجالاً منهم كثير ابن أبي كثير، وكان رجلاً عربياً، قال كثير: فقلت في نفسي: ((لا أفلت من الحجاج إلاّ باللحن)). فلما أدخلنا عليه دعاني فقال: ((ما اسمك!)) قلت: ((كثير)) قال: ((ابن من!)) فقلت.. ((ابن أبا كثير)) فقال: ((عليك لعنة الله وعلى من بعث بك، جئوا في قفاه)) فأخرجت.

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوطة الظاهرية رقم ٢٢ تاريخ ج ٥ الورقة ١/١٥٠).

هذا ومن المفيد ذكر الباعث على عناية عبد العزيز ابن مروان بالعربية فقد روى ابن عساكر قبل هذا الخبر أنه ((دخل على عبد العزيز رجل يشكو صهراً له فقال: ((إن ختني فعل بي كذا وكذا)) فقال له عبد العزيز: ((من ختَنَكَ؟)) فقال: ((ختني الختّان الذي يختن الناس)) فقال عبد العزيز لكاتبه: ((ويحك، بم أجابني!)) فقال له: ((أيها الأمير إنك لحنت وهو لا يعرف اللحن، كان ينبغي أن تقول له: ومن ختنك!)) فقال عبد العزيز: ((أراني أتكلم بكلام لا يعرفه العرب، لا شاهدت الناس حتى أعرف اللحن)). فأقام في البيت جمعة لا يظهر ومعه من يعلمه العربية، فصلى بالناس الجمعة وهو من أفصح الناس)) اهـ. قلت: تروى هذه اللحنة للوليد ابن عبد الملك: انظر ص ١٤٣ من (نقد النثر) المنسوب لقدامة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: القاهرة ١٣٥٩هـ). خزانة الأدب ٥٨٣/٣.

وانظر في لحنه أيضاً البيان والتبيين للجاحظ (٢٠٤/٢) فما بعد (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٨).

وقال عمر ابن عبد العزيز: ((إن الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن فأرده عنها، وكأني أقضم حب الرمان الحامض لبغضي استماع اللحن، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب فأجيبه إليها التذاذاً لما أسمع من كلامه))، وكان يقول: ((أكاد أضرس إذا سمعت اللحن)).

(الأضداد لابن الأنباري ص ٢٤٥)

وهذا معاوية ابن بجير والي البصرة تشغله لحنة الناعي عن مصيبته بأبيه فيقدم إنكارها.

فأنت تجد مما تقدم أن الخوف على العربية له ما يفرضه من النُّذر، وأنه تمكن في النفوس حتى تضافرت جهود العلماء وذوي السلطان على صيانة العربية، وأن الحرمان من المال أو العمل مما كان يصيب اللحانة، وأن فصاحة المرء قد ترفعه إلى الولايات والغنى، وتزيد شأنه عند أولي الأمر؛ وهذا من طرف السلطان كاف في الترغيب والترهيب. وسؤال الحجاج عن لحن بعض الناس ذوي الشأن مشعر باهتمام الحكومة والمجتمع بأمر اللحن. وذلك طبيعي من دولة قامت على العصبية العربية بعد أن رأت اللحن يفشو في الطبقات الرفيعة من الأمراء والحكام وأشراف الناس، وفي قصة بشكست النحوي تعبير واضح عن أمرين: فشو اللحن ونظرة المثقفين إليه، ولا بأس في إيرادها ففيها طرافة وفيها ظرف:

وفد بشكست النحوي على هشام ابن عبد الملك، فلما حضر الغداء دعاه هشام، وقال لفتيان بني أمية: ((تلاحنوا عليه)) فجعل بعضهم يقول: ((يا أمير المؤمنين رأيت أبي فلان..)) ويقول آخر: ((مر بي أبي فلان..)) ونحو هذا، فلما ضجوا أدخل يده في صحفة فغمسها ثم طلى لحيته، وقال لنفسه: ((ذوقي، هذا جزاؤك في مجالسة الأنذال!))[1].

أما أمر الوليد الذي مر آنفاً فقد أهم عبد الملك حتى أفضى بذات نفسه يوماً إلى روح ابن زنباع قائلاً: ((يا أبا زرعة، قد غلبني الوليد باللحن، وسأظهر العشية كآبة فسلني عنها ودعني والوليد)) فلما أذن العشاء أظهر كآبة وعنده الوليد وسليمان وروح، فقال روح: ((ما هذه الكآبة يا أمير المؤمنين! لا يسوؤك (الله) ولا يريك مكروهاً!)) فقال: ذكرت ما في عنقي من أمر هذه الأمة، وإلى من أصيّر أمرها بعدي!)) قال له روح: ((يغفر الله لك يا أمير المؤمنين. فأين أنت عن الوليد سيد شباب العرب!)) قال: ((يا أبا زرعة! لا ينبغي أن يلي أمر العرب إلا من يتكلم بكلامها)) فقام الوليد فدخل منزله فجمع إليه أصحاب النحو، فأقام ستة أشهر معهم، وخرج يوم خرج وهو أجهل بالنحو منه يوم دخل، فقال عبد الملك: ((قد أجهد وأعذر)) المصدر السابق الورقة ١/٤٢١.

واحتج على عبد الملك بلحن الوليد هذا، فقد ذكر ابن عساكر أن عبد الملك قال لرجل من قريش: ((إنك لرجل لولا أنك تلحن)) فقال: ((وهذا ابنك الوليد يلحن)) قال عبد الملك: ((لكن ابني سليمان لا يلحن)) قال الرجل: ((وأخي فلان لا يلحن!)) الورقة ١/٤٢٤.

بل كان لا يستطيع تجنب اللحن حتى على المنبر، ذكره أبو الزناد يوماً فقال: ((كان لحناً كأني أسمعه على منبر النبي ﷺ يقول: يا أهلُ المدينة!)).

بل كان لا يستطيع تجنبه حتى في آيات القرآن: قرأ يوماً على المنبر: ((يا ليتها كانت القاضية)) بضم التاء، فقال عمر ابن عبد العزيز (وكان تحت المنبر): ((يا ليتها كانت (القاضية) عليك أراحتنا منك!)) الورقة ٤٢٤/ج.

وكان عمر ابن عبد العزيز هذا أشد الناس في اللحن على ولده وخاصته ورعيته وربما أدب عليه. إرشاد الأريب ٨٩/١.

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوطة الظاهرية) الجزء السابق الورقة ١/٤٥٤ ثم قال ابن عساكر فيه: ((وكان نحوياً. أخذ عنه أهل المدينة، وكان يذهب مذهب الشراة ويكتم ذلك. فلما ظهر أبو حمزة الشاري بالمدينة (سنة ١٣٠هـ) خرج معه فقتل فيمن قتل بخلافة مروان ابن محمد)) واسمه عبد العزيز القاري وقيل في مقتله:

لقد كان بشكست عبد العزيز	من أهل القراءة والمسجد
فبعداً لبشكست عبد العزيز	وأما القرآن فلا يبعد

إلى هذا المدى بلغ أمر اللحن في المئة الأولى للهجرة والدولة عربية محضة، والعصبية ذات سلطان، والقوم حديثو عهد بجزيرتهم، ولا تزال مجتمعاتهم تتناقل القول المشهور: ((ليس للاحن حرمة)) وتتعامل به، هذا عبد الملك ابن مروان استأذن عليه رجل من علية أهل الشام، وبين يديه قوم يلعبون بالشطرنج فقال: ((يا غلام، غطها)) فلما دخل الرجل فتكلم، لحن، فقال عبد الملك: ((يا غلام، اكشف عنها، ليس للاحن حرمة)) – (الأضداد لابن الأنباري ص ٢٤٥).

وبيت الخلافة أعرق بيوت قريش شرفاً ومجداً وبلاغة وأقواها عصبية وعروبة[٢]. والعرب – كما قرر ابن جني – أشد استنكاراً لزيغ الإعراب منهم لخلاف اللغة، فقد ينطق بعضهم بالدخيل والمولد ولكنه لا ينطق باللحن.

ولذلك اشتد بلال ابن أبي بردة على خالد ابن صفوان لما رآه يلحن في حديثه العفوي معه فقال له: ((أتحدثني أحاديث الخلفاء وتلحن لحن السقاءات؟)) فلنحاول تبيان ما اختط أهل العربية من خطط يعالجون بها استفحال الداء، وهل كانوا إلى

انظر النسخة الثانية من تاريخ دمشق لابن عساكر (رقم ٣٣٧٤/٩ تاريخ) ١٠ الورقة ٢٠٢، والأغاني ١١١/١ و ١٠٨/٢٠ و ١١٠ وإنباه الرواة ١٨٣/٢.

(٢) هذا ومع ضعف السليقة العربية على الزمن لم يضعف استهجان الخاصة للحن، وحسبك هذه الحوادث الأربع رمزاً إلى ذلك، وكلها في صدر الدولة العباسية تكلم أبو جعفر المنصور في مجلس فيه أعرابي فلحن، فصر الأعرابي أذنيه (حددهما مصغياً باهتمام) فلحن مرة أخرى أعظم من الأولى، فقال الأعرابي: ((أف لهذا: ما هذا!)) ثم تكلم فلحن الثالثة فقال الأعرابي: ((أشهد لقد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر!)).

وقال سعيد ابن سلم: ((دخلت على الرشيد فبهرني هيبة وجمالاً، فلما لحن خف في عيني)).

ودخل رسول والي الكوفة العباس ابن محمد ابن موسى على طاهر ابن الحسين فقال له: ((أخيك أبي موسى يقرأ عليك السلام)) قال: ((وما أنت منه!)) قال: ((كاتبه الذي يطعمه الخبز)) فأمر تواً بصرف العباس عن الكوفة إذ لم يتخذ كاتباً يحسن الأداء عنه.

إرشاد الأريب ٨٤/١، ٨٣، ٨٦ بتصرف يسير،

بل إن المأمون كان يأخذ عماله باللوم إذا كان في كتبهم إليه لحن، ويعد ذلك تفريطاً في جانب مقام الخلافة، وإليك حديث ابن قادم النحوي الكوفي:

((وجه إليّ إسحاق بن إبراهيم المصعبي يوماً فأحضرني فلم أدر ما السبب؟ فلما قربت من مجلسه تلقاني ميمون ابن إبراهيم كاتبه على الرسائل، وهو على غاية من الهلع والجزع، فقال لي بصوت خفي: ((إنه إسحاق)) ومر غير متلبث ولا متوقف حتى رجع إلى مجلس إسحاق، فراعني ذلك. فلما مثلت بين يديه قال لي: كيف يقال: ((وهذا المال مالاً)) أو ((وهذا المال مال))! فعلمت ما أراد ميمون، قلت له: ((الوجه (وهذا المال مال) ويجوز (وهذا المال مالاً)))، فأقبل إسحاق على ميمون بغلظة وفظاظة ثم قال: ((الزم الوجه في كتبك. ودعنا من يجوز ويجوز)) ورمى بكتاب في يده، فسألت عن الخبر فإذا ميمون قد كتب إلى المأمون، وهو ببلاد الروم، عن إسحاق وذكر مالاً حمله، فكتب: ((وهذا المال مالاً)) فخط المأمون على الموضع من الكتاب ووقع بخطه في حاشيته: ((تخاطبني بلحن!!)) فقامت القيامة على إسحاق.

فكان ميمون بعد ذلك يقول: ((ما أدري كيف أشكر ابن قادم، أبقى علي روحي ونعمتي!!)) قال ثعلب راوي الحديث: ((فكان هذا مقدار العلم وعلى حسب ذلك كانت الرغبة في طلبه والحذر من الزلل)). قال: ((وهذا المال مالاً)) ليس بشيء، ولكن أحسن ابن قادم في التأتي لخلاص ميمون)) – إنباه الرواة ١٥٧/٣ وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ١٥٣.

حتى إذا امتد الزمن خف الاستنكار شيئاً ما فصرنا نرى ثعلباً النحوي ((لا يتكلف إقامة الإعراب في كلامه إذا لم يخش لبساً في العبارة)) ونرى إبراهيم الحربي وقد ذكر له ذلك يقول: ((أيش يكون إذا لحن في كلامه! كان هشام النحوي يلحن في كلامه، وكان أبو هريرة يكلم صبيانه بالنبطية)) – إنباه الرواة ١/ ١٤٠.

بل كان بعض الأمرء بالبصرة يقرأ (إن الله وملائكته) بالرفع فمضى إليه الأخفش ناصحاً له فانتهره وتوعده وقال: ((تلحنون أمراءكم!!)) – إنباه الرواة ٤٣/٢.

على أن من يعتد بهم في المجتمع مضوا على استهجان اللحن زمناً طويلاً فقد حدث حفص ابن غياث قال:

((وجه إلينا عيسى ابن موسى ليلاً فصرنا إليه والجند سماطان وقد امتلأنا رعباً منه فقال: ((ما دعوتكم إلا لخيراً)) فزالت هيبته من قلوبنا لقبح لحنه)) – المصون للعسكري ص١٤٦ طبعة حكومة الكويت سنة ١٩٦٠م.

الشدة حين شرطوا للاحتجاج تلك الشروط التي أسقطت الاحتجاج بكلام كثير من العرب حتى في زمن الجاهلية؟

تصنيف العرب من حيث الوثوق بسلامة لغتها: (من يحتج به)

يراد بالاحتجاج هنا إثبات صحة قاعدة، أو استعمال كلمة أو تركيب، بدليل نقلي صح سنده إلى عربي فصيح سليم السليقة على ما سيأتي تفصيله في موضعه.

وإنما احتاج القوم إلى الاحتجاج لما خافوا على سلامة اللغة العربية بعد أن اختلط أهلها بالأعاجم إثر الفتوح وسكنوا بلادهم وعايشوهم، فنشأ عن ذلك بسنة الطبيعة أخذ وعطاء في اللغة والأفكار والأخلاق والأعراف. وتنبه أولو البصر إلى أن الأمر آيل إلى إفساد اللغة وضياع العصبية من جهة، وإلى التفريط في

صيانة الدين من جهة ثانية، إذ كانت سلامة أحكامه موقوفة على حسن فهم المستنبط لنصوص القرآن الكريم والحديث الشريف، وكان في ضعف العربية تضييع لهذا الفهم.

بحث علماء العربية فيمن نقل الرواة عنهم من أهل المدر والوبر قدماء ومحدثين. تقصوا أحوالهم ونقدوها، فاجتمعوا على الاحتجاج بقول من يوثق بفصاحته وسلامة عربيته، ونحن عارضون لأصناف هؤلاء زماناً ومكاناً وأحوالاً.

فأما الزمان فقد قبلوا الاحتجاج بأقوال عرب الجاهلية وفصحاء الإسلام حتى منتصف القرن الثاني سواء أسكنوا الحضر أم البادية. أما الشعراء فقد صنفوا أصنافاً أربعة: جاهليين لم يدركوا الإسلام، ومخضرمين أدركوا الجاهلية والإسلام، وإسلاميين لم يدركوا من الجاهلية شيئاً، ومحدثين أولهم بشار بن برد[1]. وشبه الإجماع انعقد على صحة الاستشهاد بالطبقتين الأوليين واختلفوا في الطبقة الثالثة، وذهب عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب إلى جواز الاستشهاد بها[2]، أما الطبقة الرابعة فلا يستشهد بكلامها في علوم اللغة والنحو والصرف خاصة، وكان آخر من يحتج بشعره على هذا الأساس بالإجماع إبراهيم ابن هرمة (٧٠ – ١٥٠هـ) الذي ختم الأصمعي به الشعر[3]. أما أهل البادية فقد استمر العلماء يدونون لغاتهم حتى فسدت سلائقهم في القرن الرابع الهجري[1].

وعلى هذا ((أجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة العربية))[2].

---

(١) الاقتراح ص ٣٢.

(2) خزانة الأدب ١/٢٠.

(3) الاقتراح للسيوطي ص ٢٢ (مطبعة المعارف بحيدر آباد ١٣١٠هـ). هذا وبعضهم يرى الاحتجاج بالطبقة الرابعة مستدلاً باستشهاد سيبويه بشعر بشار ابن برد في (الكتاب)، ويرد المعترضون بأنه إنما فعل ذلك خوفاً من لسانه.

(1) قرر ياقوت في معجم البلدان مادة (عكد) أن جبلي (عكاد) فوق مدينة الزرائب ((وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة في مناكحة، وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه)).

(توفي ياقوت سنة ٦٢٦هـ) ثم جاء صاحب القاموس المحيط المتوفى سنة (٨١٧هـ) فقرر أن (عكاد) ((جبل باليمن قرب مدينة زبيد وأهله باقية على اللغة الفصيحة)).

ثم زاد المرتضى الزبيدي المتوفي سنة (١٢٠٥هـ) في شرحه للقاموس عند هذه المادة كلمة (إلى الآن) وقال: ((لا يقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاث ليال حوفاً على لسانهم!)) – ارجع إلى هذه المادة (عكد) في المراجع الثلاثة المذكورة. والزبيدي أقام في (زبيد) زمناً طويلاً فهو بها عارف.

(2) الاقتراح ص ٣١ وقد مال الزمخشري إلى استثناء أئمة العربية من ذلك داعياً إلى ((جعل الوثوق بكلامهم كالوثوق برواياتهم)) وليس بشيء.

وأما المكان أو بعبارة أخرى القبائل، فقد اختلفت درجاتها في الاحتجاج على اختلاف قربها أو بعدها من الاختلاط بالأمم المجاورة، فاعتمدوا كلام القبائل في قلب جزيرة العرب، وردوا كلام القبائل التي على السواحل أو في جوار الأعاجم، وإليك تصنيف أبي نصر الفارابي لهم في الاحتجاج:

أ- كانت قريش أجود العرب انتقاء[٣] للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً وأبينها عمّا في النفس.

والذين عنهم نقلت اللغة العربية، وبهم اقتُديَ، وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم:

قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف.

ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم[١].

ب- وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم:

لم يؤخذ من لخم ولا من جذام؛ فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط.

ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد؛ فإنهم كانوا مجاورين أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرؤون بصلاتهم بغير العربية.

ولا من تغلب ولا النمر؛ فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية.

ولا من بكر؛ لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس.

ولا من عبد القيس؛ لأنهم كانوا من سكان البحرين مخالطين للهند والفرس.

ولا من أزد عمان؛ لمخالطتهم للهند والفرس.

ولا من أهل اليمن، أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم.

ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطائف؛ لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم.

ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب، قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم[١].

---

(3) قال ابن فارس: ((وكانت قريش مع فصاحتها... إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب)) الصاحبي ص ٢٣ (المطبعة السلفية بالقاهرة).

(1) ومع هذا لم تكن لغات هؤلاء بالمرضية دائماً: قال الحسن البصري يوماً: ((توضيت)) فقيل له: ((أتلحن يا أبا سعيد!!)) فقال: ((إنها لغة هذيل وفيها فساد)). انظر كتاب (ألف باء) للبلوي ٤٦/١.

(1) الاقتراح للسيوطي. ص ٣٢٠ نقلاً عن كتاب الفارابي (الألفاظ والحروف).

هذا وقد ورد الجاحظ في كتابه (البيان والتبين) مقابلة طريفة بين لغات أهل مكة والبصرة والكوفة، يفيد إيرادها في شرح الظاهرة المذكورة أعلاه، قال الجاحظ: ((أهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب، ولذلك نجد الاختلاف في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر))... وقال أهل مكة لمحمد ابن مناذر الشاعر: ((ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة (هنا أهل مكة))) فقال محمد ابن مناذر: ((أما ألفاظنا فأحكي الألفاظ للقرآن وأكثرها موافقة له، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم: أنتم تسمون القدر برمة وتجمعون البرمة على برام، ونحن نقول: (قدر) ونجمعها على قدور، وقال الله عز وجل: ﴿في جفانٍ كالجواب وقدور راسيات﴾ وأنتم تسمون البيت (علية) وتجمعون هذا الاسم على علالي ونحن نسميه (غرفة) ونجمعه على غرف وغرفات، وقال الله: ﴿غرف من فوقها غرف مبنية﴾ وقال: ﴿هم في الغرفات آمنون﴾، وأنتم تسمون الطلع (الكافور والإغريض) ونحن نسميه الطلع، وقال الله: ﴿ونخل طلعها هضيم﴾..)) فعد عشر كلمات لم أحفظ أنا منها غير هذا.

ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفر س في قديم الدهر. علقوا بألفاظ من ألفاظهم، ولذلك

وكأن هذا التصنيف حاز القبول وجرى عليه العمل وكان الخروج عليه مدعاة إلى النقد، ولما اعتمد ابن مالك على لغات لخم وجذام وغسان، تعقبه باللوم أبو حيان فقال في شرح التسهيل: ((ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن))[1].

وكان أبو عمرو ابن العلاء يقول: ((لا أقول: (قالت العرب..) إلاّ ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية)) يريد ما بين نجد وجبال الحجاز حيث قبائل أسد وتميم وبعض قبائل قيس[2]، بل كان عثمان يقول: ((لا يملين في مصاحفنا إلاّ غلمان قريش وثقيف)).

وأما أحوال هؤلاء العرب المحتج بهم فخيرها ما كان أعمق في التبدّي، وألصق بعيشة البادية، ولذا كان مما يفخر به البصريون على الكوفيين أخذهم من الأعراب أهل الشيح والقيصوم، وحرشة الضباب، وأكلة اليرابيع، ويقولون للكوفيين: ((أخذتم عن أكلة الشواريز وباعة الكواميخ))[3]. وقد نص الفارابي بعد قوله المتقدم آنفاً على صناعة هؤلاء الأعراب وصفاتهم فقال: ((كانت صنائع هؤلاء التي بها يعيشون الرعاية والصيد واللصوصية، وكانوا أقواهم نفوساً وأقساهم قلوباً وأشدهم توحشاً، وأمنعهم جانباً، وأشدهم حمية، وأحبهم لأن يَغلبوا ولا يُغلبوا، وأعسرهم انقياداً للملوك، وأجفاهم أخلاقاً وأقلهم احتمالاً للضيم والذلة))[1].

وتستطيع أن تجعل مرد الأمر كله – بعدما تقدم لك – إلى الوثوق من سلامة لغة المحتج به وعدم تطرق الفساد إليها، وهذا هو الضابط في التصنيف الزماني والمكاني اللذين مرا بك، فأنت تعلم إسقاط العلماء الاحتجاج بشعر أمية ابن أبي الصلت وعدي ابن زيد العبادي[2]. وحتى الأعشى عند بعضهم، لمخالطتهم الأجانب وتأثر لغتهم بهذه المخالطة، حتى حمل شعرهم عدداً غير قليل من ألفاظ ومصطلحات لا تعرفها العرب، وكل هؤلاء شعراء جاهليون[1]؛ بينما يذهب فريق

يسمون البطيخ (الخربز) ويسمون.. إلخ.

وكذا أهل الكوفى يسمون المسحاة: (بال) وبال بالفارسية: ولو علق ذلك لغة أهل البصرة إذ نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب كان ذلك أشبه إذ كان أهل الكوفة نزلوا بأدنى بلاد النبط وأقصى بلاد العرب. ويسمى أهل الكوفة الحوك (البقلة الحمقاء) بازورج والبازورج بالفارسية والحوك كلمة عربية. وأهل البصرة إذا التقت أربع طرق يسمونها (مربعة) وتسميها أهل الكوفة (جهارسو) والجهار بالفارسية. ويسمون السوق أو السويقة وازار والوازار بالفارسية. ويسمون القثاء خياراً والخيار فارسية. ويسمون المجذوم ويذي بالفارسية. اهـ ١٨/١.

وبهذه الأمثلة التي طغى فيها الأثر الاجتماعي على الأثر الجغرافي تدرك الحافز لعلماء العربية على إسقاط من أسقطوا في الاحتجاج من العرب في الجاهلية والإسلام.

(1) الاقتراح ص ٢٤.
(2) انظر مجلة مجمع اللغة العربية (بالقاهرة) ١٤١/٨.
(3) الشيراز اللبن المصفى، والكامخ: إدام – انظر القاموس المحيط.
(1) الاقتراح ص ٢٤
(2) إسقاط الاحتجاج في اللغة لا يؤثر في الشاعرية؛ وعلى هذا ينبغي أن يفهم إنكار القاضي الجرجاني زعم الأصمعي:

((زعم الأصمعي أن العرب لا تروي شعر أبي دؤاد وعدي ابن زيد، لأن ألفاظهما ليست بنجدية))، وكيف يكون ذلك وهذا معاوية يفضل عدياً على جماعة الشعراء، وهذا الحطيئة يسأل: من أشعر الناس؟ فيقول: الذي يقول وأنشد لأبي دؤاد:

لا أعد الإقتار عُدماً ولكن فقد من قد رزئته الاقتار... إلخ الأبيات

الوساطة ص ٤٩

هذا ومن العلماء من لا يحتج بغير الجاهليين وقد قال الأصمعي: ((جلست على أبي عمرو ابن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامي)).

(1) مع هذا لابد من بعض التسامح فإن التدقيق والتقصّي لا يسلم عليهما كثير من كلام المحتج بهم: هذا الكميت والطرماح روي أنهما كانا ((يسألان العجاج عن الغريب ثم يراه في شعرهما موضوعاً في غير

إلى الاحتجاج بكلام الشافعي المتوفّى في القرن الثالث للهجرة، حتى نص الإمام أحمد بن حنبل على أن ((كلام الشافعي في اللغة حجة))[٢] لسلامة نشأته وتقلبه في البيئات العربية السليمة. قيل لبشار: ((ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلاّ وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه، وإنه ليس في شعرك ما يشك فيه)). قال: ((ومن أين يأتيني الخطأ؟ ولدت ها هنا، ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت؛ فمن أين يأتيني الخطأ))[٣].

وكلمة بشار هذه دليل قاطع على وجود بيئات في المدن سليمة من اللحن لزمنه في المئة الثانية للهجرة.

ويعجبني كثيراً قول ابن جني في هذا الموضوع في باب (ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر):

((علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل، ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر. وكذلك أيضاً لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها، لوجب رفض لغتها وترك تلقي ما يرد عنها، وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا، لأنا لا نكاد نرى بدوياً فصيحاً، وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه..))[١].

نشأة النحو

ما مضى لك بيانه من أحداث اللّحن حمل القوم على الاجتهاد لحفظ العربية، وتيسير تعلمها للأعاجم، فشرعوا يتكلمون في الإعراب وقواعده، حتى تم لهم مع الزمن هذا الفن.

مواضعه))، فقيل لـه: ((ولم ذلك!)) قال: ((لأنهما قرويان يصفان ما لم يريا فيضعانه في غير موضعه وأنا بدوي أصف ما رأيت فأضعه في مواضعه.)) – الأغاني ١٧/٢ بل إن الأصمعي كان يقول في الكميت: ((جر مقاني من جر اميق (عجم) الشام لا يحتج بشعره)) وينكر مواضع من شعر الطرماح ويلحن ذا الرمة – انظر الوساطة للقاضي الجرجاني ص٩. بل ذهب الجرجاني في باب (أغاليط الشعراء ص٤ من الوساطة) إلى أنه لا توجد قصيدة واحدة من كل تلك الدواوين الجاهلية والإسلامية (تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه) اه. وما أشبه هذا بالحق.

(2) الاقتراح ص٢٤

(3) أغاني ٢٦/٣ طبعة الساسي.

(1) الخصائص ٥/٢ ثم ذكر ابن جني أدلة على فساد سليقة الأعراب في زمنه فقال: ((وقد كان طرأ علينا أحد من يدعي البدوية؛ ويتباعد عن الضعفة الحضرية، فتلقينا أكثر كلامه بالقبول لـه، وميزناه تمييزاً حسن في النفوس موقعه، إلى أن أنشدني يوماً شعراً لنفسه يقول في بعض قوافيه (أشأؤها. وأدأؤها) (بوزن أشعها وأدعها) فجمع بين الهمزتين كما ترى. واستأنف من ذلك مالا أصل لـه، ولا قياس يسوغه، نعم وابدل إلى الهمز حرفاً لا حظ لـه في الهمز، بضد ما يجب، لأنه لو التقت همزتان عن وجوب صنعة للزم تغيير إحداهما. فكيف أن يقلب إلى الهمز قلباً ساذجاً عن غير صنعة ما لاحظ لـه في الهمز، ثم يحقق الهمزتين جميعاً! هذا ما لا يبيحه قياس ولا ورد بمثله سماع ...)) إلخ.

والذي تجمع عليه المصادر أن النحو نشأ بالبصرة، وبها نما واتسع، وتكامل وتفلسف، وأن رؤوسه بنزعتيه السماعية والقياسية كلهم بصريون.

* * *

أول من أرسل في النحو كلاماً أبو الأسود الدؤلي المتوفّي سنة ٦٧هـ.

وقيل: إن علي ابن أبي طالب ألقى على أبي الأسود شيئاً من أصول هذا النحو، ثم قال له: ((انحُ هذا النحو)) فسمي الفن نحواً.

وقيل: إن أول من تكلم فيه: نصر ابن عاصم المتوفى سنة ٨٩ هـ.

وقيل: عبد الرحمن ابن هرمز المتوفى سنة ١١٧ هـ.

وقيل: لم يصل إلينا شيء عن أحد قبل يحيى بن يعمر المتوفى سنة ١٢٩هـ، وابن أبي إسحاق الحضرمي المتوى سنة ١١٧ هـ.

وقيل وقيل.. إلخ.

ومن يقرأ بإمعان ترجمة أبي الأسود الدؤلي في (تاريخ دمشق لابن عساكر) مثلاً، ثم يفكر في توارد أكثر المصادر على جعله واضع الأساس في بناء النحو لا يستبعد ذلك، فالرجل ذو ذكاء نادر، وجواب حاضر، وبديهة نيرة، ثم هو بعدُ بليغ أريب مرن الذهن، وحسبك اختراعه (الشكل)[١] الذي عرف بنقط أبي الأسود للدلالة على الرفع والنصب والجر والتنوين، وهو ما أجمعوا عليه قديماً ولم يشك فيه حديثاً أحد. و (الشكل) أعود على حفظ النصوص من حدود النحو؛ ولعله أعظم خدمة قدمت للعربية حتى الآن، وكان الخطوة الأولى إلى النحو كما ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين[١].

وينص أبو الطيب اللغوي على أن أبا الأسود وضع النحو ليتعلم بنو زياد[٢]. ((واختلف الناس إليه يتعلمون العربية وفرع لهم ما كان أصّله فأخذ ذلك عنه جماعة)).

وليس يعنينا هنا تحرير هذه الأولية بتفصيل[٣]، لكننا لا نرى بداً من أن نشير إلى أن اتفاقهم على أنه واضع (الشكل) وأن شبه الإجماع على أنه أول من تكلم بالنحو،

---

(1) اختار أبو الأسود كاتباً وأمره أن يأخذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد وقال لـه: ((إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعت شيئاً من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين))، فهذا نقط أبي الأسود. – أخبار النحويين البصريين لأبي سعيد السيرافي (ص١٦) (المطبعة الكاثوليكية في بيروت). وتهذيب تاريخ ابن عساكر ١٠٩/٧. والفهرست لابن النديم ص٦٠.

وهذا سبب إطلاق الفتح والكسر والضم على الحركات المعروفة فيما أرى، إذ كان أبو الأسود أول من استعملها. أما السكون في هذا المصحف فعلامته التجرد من العلامة.

(1) ضحى الإسلام ٢٨٧/٢ وانظر مراتب النحويين ص١٠

(2) مراتب النحويين ٨، ١٠

(3) وما أقرب رواية أبي الفرج من الواقع والاعتدال حين سلسل لنا الخطوات في عبارة فيها كثير من الاقتصاد قال راوياً عن المدائني: ((أمر زياد أبا الأسود الدؤلي أن ينقط المصاحف فنقطها، ورسم من النحو رسوماً، ثم زاد فيها بعده عنبسة ابن معدان ثم جاء عبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي وأبو عمرو ابن العلاء فزادا فيه، ثم جاء عبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي وأبو عمرو ابن العلاء فزادا فيه، ثم جاء الخليل ابن أحمد الأزدي وكان صليبة فلحبه، ونجم علي ابن حمزة الكسائي مولى بني كاهل من أسد فرسم للكوفيين رسوماً فهم الآن يعملون عليها)) - الأغاني ١٠١/١١، وسيمر بك بعض تفصيل عن هؤلاء الأعلام، ولا بأس في تنبيهك إلى أن أبا الفرج نص في أول ترجمته لأبي الأسود، على أنه (كان الأصل في بناء النحو وعقد أصوله.)

وابن سلام يقول: ((أول من استن العربية وفتح بابها وانتهج سبيلها، ووضع قياسها أبو الأسود)) طبقات فحول الشعراء ص١٢ طبعة دار المعارف.

وللزبيدي الأندلسي المتوفى سنة ٣٧٩هـ رواية مفيدة يسلسل فيها الخطوات الأولى في كتابه طبقات

وأنه كان يتصدّر لإعراب القرآن[1]، وأن هؤلاء الذين تزعم لهم الأولية في بعض الأقوال: نصر ابن عاصم، ويحيى ابن يعمر، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن، كلهم تلميذ أبي الأسود أو تلميذ تلميذه، عنه أخذوا العربية والقراءة بالبصرة؛ كل أولئك مع ما عرف عن أبي الأسود من ذكاء وقّاد، وفكر متحرك، وعقل وروية،.. يجعلنا نقطع بأنه وضع أساساً بنى عليه من بعده. ولكن، ما هو هذا الأساس؟

لسنا نجد لهذا السؤال جواباً يشفي الغليل، فصحيفة أبي الأسود تعرف عند النحاة بـ (التعليقة)، فإذا أردنا معرفة محتوياتها لم نحظ بما يُطمأن إليه[2]، بل فات معرفتها العلماء منذ المئة الرابعة مع شدة حرصهم عليها فيروي ابن النديم خبراً طريفاً عن رجل جمّاعة للكتب له خزانة لم ير لأحد مثلها، بما جمعت من خطوط العلماء الأولين ونوادر الكتب والرقاع فهي متحف كل ما فيه نادر وثمين، قال الذي شاهدها:

((... ورأيت عندما أمانات وعهوداً بخط أمير المؤمنين علي عليه السلام وبخط غيره من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل: أبي عمرو ابن العلاء، وأبي عمرو الشيباني، والأصمعي، وابن الأعرابي، وسيبويه، والفراء، والكسائي. ومن خطوط أصحاب الحديث مثل: سفيان ابن عيينة، وسفيان الثوري، والأوزاعي وغيرهم. ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود

النحويين واللغويين ص٢١٥ قال:

((ابن أبي سعد قال حدثنا علي بن محمد الهاشمي قال: سمعت أبي يذكر قال: كان بدء ما وضع أبو الأسود النحو أنه مر به سعد، وكان رجلاً فارسياً قدم البصرة مع أهله، وكان يقود فرسه فقال: مالك يا سعد! ألا تركب!)) فقال: ((فرسي ضالع)) فضحك به من حضره. قال أبو الأسود: ((هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام ودخلوا فيه وصاروا لنا إخوة، فلو علمناهم الكلام))، فوضع باب الفاعل والمفعول لم يزد عليه قال أبي: ((فزاد في ذلك الكتاب رجل من بني ليث أبواباً، ثم نظر فإذا في كلام العرب مالا يدخل فيه فأقصر عنه))، فلما كان عيسى ابن عمر قال: ((أرى أن أضع الكتاب على الأكثر، وأسمي الأخرى لغات. فهو أول من بلغ غايته في كتاب النحو)).

(1) في ترجمة حر ابن عبد الرحمن القارئ النحوي أنه: سمع أبا الأسود، وعنه طلب إعراب القرآن أربعين سنة. – بغية الوعاة ص ٢١٥

(2) أما ابن الأنباري فقد اطمأن إلى خبر ذكره في أول كتابه (نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص ٥) حين روى أن علي ابن أبي طالب دفع إلى أبي الأسود رقعة فيها: ((الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما انبئ به، والحرف ما أفاد معنى. واعلم أن الأسماء ثلاثة: ظاهر ومضمر، واسم لا ظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل الناس فيما ليس بظاهر ولا مضمر...)) ثم يذكر ابن الأنباري أن أبا الأسود وضع أبواب: (العطف، والنعت، والتعجب، والاستفهام) إلى أن وصل إلى باب إن وأخواتها ماخلا لكنّ، فلما عرضها على علي أمره بضم (لكن) إليها، وكلما وضع باباً من أبواب النحو عرضه عليه)) اهـ.

ولست أدري هل أبقت أمور الخلافة والحروب والفتن لعلي وقتاً يفرغ فيه للتأليف في العلوم وتنقيحها واختراعها! ولعل الأستاذ أحمد أمين لم يكن بعيداً من الصواب حين روى هذا الخبر فعلق عليه بما يأتي:

((وكل هذا حديث خرافة، فطبيعة زمن علي وأبي الأسود تأبى هذه التعاريف وهذه التقاسيم الفلسفية، والعلم الذي ورد إلينا من هذا العصر في كل فرع يتناسب مع الفطرة ليس فيه تعريف ولا تقسيم، إنما هو تفسير آية أو جمع لأحاديث ليس فيها ترتيب ولا تبويب، فأما تعريف وأما تقسيم منطقي فليس في شيء مما صح نقله إلينا عن عصر علي وأبي الأسود وأخشى أن يكون ذلك من وضع بعض الشيعة الذين أرادوا أن ينسبوا كل شيء إلى علي وأتباعه)) – ضحى الإسلام ٢٨٥/٢.

وأنا مع عدم استبعادي كثيراً صدور كلام مثل هذا عن أبي الأسود بعد موت علي بسنين حين اعتزل العمل الرسمي وفرغ لمثل هذه الشؤون، لا أطمئن إلى ما روى ابن الأنباري.

حتى ابن فارس الذي ذهب إلى قدم النحو قبل زمن أبي الأسود بكثير لا ينكر إمامته وتجديده فقد قال: ((فإن قال قائل: لقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية، وأن الخليل أول من تكلم في العروض، قيل له: نحن لا ننكر ذلك، بل نقول: إن هذين العلمين قد كانا قديماً، وأتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس، ثم جددهما هذان الإمامان)). الصاحبي في فقه اللغة ص١٠، ونقله بنصه السيوطي في المزهر ٣٤٥/٢.

لكني أقف عند قولة المبرد: ((قرأت أوراقاً من كتابَيْ عيسى بن عمر فكان كالإشارة إلى الأصول)) وأقول: إذا كانت كتب الطبقة الثالثة هذه كالإشارة إلى الأصول فما حال نحو أبي الأسود! (توفي أبو الأسود سنة ٦٧ وعيسى ابن عمر سنة ١٤٩هـ). انظر نزهة الألباء.

ما هذه حكايته وهي أربع أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها: هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول عن أبي الأسود، رحمة الله عليه، بخط يحيى ابن يعمر، وتحت هذا الخط يخط عتيق: هذا خط علان النحوي، وتحته: هذا خط النضر ابن شميل.

ثم لما مات الرجل فقدنا القِمْطر وما كان فيه فما سمعنا له خبراً.. على كثرة بحثي عنه))[1].

فليسعنا من الأسف والحسرة على تعليقة أبي الأسود ما وسع العلماء قبلنا بألف عام، إذ لا سبيل إلى المعرفة الشافية مع هذا الغموض.

أخذ عن أبي الأسود: يحيى ابن يعمر، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن، ونصر ابن عاصم، وعطاء ابن أبي الأسود، وأبو نوفل ابن أبي عقرب[1]، وعن هؤلاء أخذ علماء البصرة طبقة بعد طبقة، ثم نشأ بعد نحو مئة عام من تلاميذهم من ذهب إلى الكوفة فعلم بها، فكان منه ومن تلاميذه ما يسمى بمدرسة الكوفة[2].

وهذا جدول[3] يوضح لك تتابع هذه الطبقات إلى المئة الثالثة للهجرة، وترى فيه أن أعلام الكوفة كلهم أخذوا عن أئمة البصريين بأخرة:

---

(1) الفهرست ص ٦١.

ثم تظهر فجأة بعد أكثر من مئة سنة عند إبراهيم ابن عقيل القرشي (٤٧٤ هـ) فيزعم لأصحابه من أهل الحديث أن عنده تعليقة أبي الأسود التي ألقاها عليه علي ابن أبي طالب، ويعدهم بها ويستنجزونه ويرجئهم فلا يظفرون منه بطائل، ثم يكتبها عنه – فيما رووا – ففيه مالكي اسمه أبو العباس أحمد ابن منصور ((وإذا به قد ركب عليها إسناداً لا حقيقة لـه ... وهذه التي سماها التعليقة هي في أول أمالي أبي القاسم عبد الرحمن ابن إسحاق الزجاجي النحوي نحو عشرة أسطر فجعلها هذا الشيخ إبراهيم قريباً من عشر أوراق)) اهـ.

- انظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٣١/٢ مطبعة روضة الشام ١٣٣٠ هـ.

قلت: ((ليس في أمالي الزجاجي المطبوعة من هذه التعليقة أثر ما، وابن عساكر على حق حين يتوقف في توثيق إبراهيم ابن عقيل بعد هذا التدليس)).

(1) إنباه الرواة ٣٨٢/٢.

(2) على أن هناك من ذهب إلى وجود مدرسة ثالثة هي مدرسة المدينة، وأن رأسها عبد الرحمن ابن هرمز الذي مر بك (ص ٢٧) أنه أحد الذين نسبت إليهم أولية الكلام في النحو. وهذا شيء لم يشتهر، لكن القفطي ذكر في هذا كلاماً أنا مثبته لفائدته فقد جاء في إنباه الرواة في ترجمته:

قال أهل العلم: ((إنه أول من وضع علم العربية، والسبب في هذا القول أنه أخذ عن أبي الأسود الدؤلي وأظهر هذا العلم بالمدينة، وهو أول من أظهره وتكلم فيه بالمدينة، وكان من أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش، وما أخذ أهل المدينة النحو إلا منه، ولا نقلوه إلا عنه، وإليه أشار ابن برهان النحوي في أول شرحه في (اللمع) بأن قال: ((النحاة جنس تحته أنواع: مدنيون بصريون، كوفيون)) ... ويُروى أن مالك ابن أنس إمام دار الهجرة تردد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما... مات سنة ١١٧هـ.

- إنباه الرواة ٢/ ١٧٢.

- هذا واحد وأما الثاني فبشكست الذي مر بك خبره ص ١٣.

(3) عن ضحى الإسلام ٢/ ٢٨٤. وتكرر الاسم معناه تعدد مشايخ صاحبه، أما الأعلام المدرجة أسماؤهم بخط رقعي فهم كوفيون، والباقون بصريون.

المدرستان الأوليان

١- مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة. ٢- نشأة الخلاف واحتكاك المذهبين.

٣- الفروق بينهما. ٤- أثر العصبية في الخلاف. ٥- كتب الخلاف.

أول من ذكر من أعلامها أبو الأسود الدؤلي، وتلاميذه هم الذين نشروا النحو في البصرة، وتخرج على أيديهم وأيدي تلاميذهم طبقات من أعلام النحو، رفعوا بناء المذهب البصري على أسس متينة وقواعد محكمة.

وإليك شيئاً عن هذه الطبقات مرجئاً الكلام على بيئة البصرة وبيئة الكوفة وطبيعة عربهما وأعرابهما إلى حين الكلام على الفروق بين المذهبين، لتقابل البيئتين وأهليهما بعضاً ببعض.

الطبقة الأولى من البصريين

فأما عنبسة فقد ((تعلم النحو وروى الشعر وظرف[١] حتى صار – على ما يروى عن الخليل – أبرع أصحاب أبي الأسود))[٢].

وأما ميمون فرأس الناس بعد عنبسة ويروون عن أبي عبيدة قوله: ((أول من وضع العربية أبو الأسود، ثم ميمون الأقر، ثم عنبسة الفيل، ثم عبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي))[٣].

وأما نصر بن عاصم الليثي ((فكان أحد القراء والفصحاء، وأخذ عنه أبو عمرو بن العلاء والناس)) قال عنه الزهري: ((إنه ليفلق بالعربية تفليقاً))، بل منهم من ذهب إلى أنه أول من وضع العربية[١].

وأما يحيى ابن يعمر فقد عرفت علمه وفصاحته، وعرفت شأنه مع الحجاج، ووصفوه بالعلم والأمانة، وقد روى عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما[٢].

والذي يجب التنبيه إليه قبل الانتقال إلى الطبقة الثانية أن تلميذي أبي الأسود: نصر ابن عاصم ويحيى ابن يعمر خطوْا الخطوة الكبرى التي تلت خطوة أبي الأسود في ضبط الكتابة العربية، إذ ابتكرا نقط الحروف أفراداً وأزواجاً لتمييز الحروف المتشابهة كالباء والياء والنون، فعلا ذلك بإشارة الحجاج على ما ذكروا، وبعد تردد منهما في أن يزيدا شيئاً على رسم مصحف عثمان، ثم بان لهما صواب الإصلاح بعد روية، فأقدما عليه.

بل إن ليحيى هذا أولية في التأليف، فقد ذكروا أنه اتفق هو وعطاء بن أبي الأسود بعد موت أبيه ((على بسط النحو وتعيين أبوابه وبعج مقاييسه.. ولما استوفيا جزءاً متوفراً من أبواب النحو نسب بعض الرواة إليهما أنهما أول من وضع هذا النوع))[٣].

ولكن المشهور أن نصراً هو الذي ميز بين الحروف المتشابهة بالنقط المتداول حتى اليوم، وغيّر ترتيب (الأبجدية) إلى الترتيب المعروف، ثم ألغى نقط أبي الأسود مستبدلاً به (الشكل الحالي) الذي هو أبعاض الحروف (ا و ي). فنقط أبي الأسود

---

(1) أخبار النحويين البصريين ص ٢٤.
(2) المزهر ٣٩٨/٢
(3) أخبار النحويين البصريين ص ٢٥.
(1) المصدر نفسه ص ٢١، ٢٠ والفهرست لابن النديم ص ٥٩.
(2) ص ٩ من هذا الكتاب وص ٥٢ من الفهرست وص ٢٢ من أخبار النحويين البصريين .
(3) إنباه الرواة ٣٨٠/٢.

(إعراب) لإبانته عن حركة آخر الكلمة، ونقط نصر (إعجام) لإزالته العجمة عن الحروف، وكان يلتبس بعضها ببعض))[1].

الطبقة الثانية من البصريين

وفيها أبو عمرو ابن العلاء وعبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي.

فأما الأول فمن أشراف مازن وأحد الأعلام في القرآن واللغة والنحو، وهو أحد القراء السبعة، قال فيه أبو عبيدة: ((أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب والشعر، وكانت دفاتره ملء بيته إلى السقف)) كان مرجع الناس في عصره، وخير ما يعبر عن مكانته في عيون معاصريه حديث سفيان ابن عيينة، قال: ((رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت: يا رسول الله لقد اختلفت علي القراءات فبقراءة من تأمرني))؟ فقال: ((بقراءة أبي عمرو بن العلاء))[1]، وأخذ عن نصر ابن عاصم المتقدم ذكره، وعن يحيى ابن يعمر، وعن قارئ مكة عبد الله ابن كثير. وأقام بين البدو أربعين سنة كما قرر اليزيدي (ص ١٧١ مجالس العلماء للزجاجي).

((وأخذ عنه عيسى ابن عمر ويونس ابن حبيب وأبو الخطاب الأخفش فكان هؤلاء الثلاثة أعلم الناس وأفصحهم))[2]. وأما عبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي فقد كان يلحّن الفرزدق، وهو في زمن أبي عمرو والناس يفاضلون بينهما فيقدمون أبا عمرو في اللغة ويقدمون ابن أبي إسحاق في النحو، وهو ((أعلم أهل البصرة وأعقلهم، فرع النحو وقاسه، وتكلم في الهمز حتى عُمل فيه كتاب مما أملاه[3]، ويذكرون أنه أول من علل النحو)).

ويمكن أن يلحق بهذه الطبقة عيسى ابن عمر الثقفي مولى خالد ابن الوليد، أخذ العلم عن أبي عمرو ابن العلاء وعبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي، وعد في القراء البصريين، وهو إمام في العربية والنحو، ولعله أول من ألف فيهما كتاباً جامعاً، وقد اشتهر اسم كتابيه دون أن يصل إلينا منهما خبر أو أثر، والغريب أن تلميذه الخليل ابن أحمد قرأهما ووعاهما، وأعجباه حتى جعل مؤلفهما مجدد هذا الفن والمعفي على آثار من سبقه قال:

---

(1) جاءت امرأة إلى الفرزدق تستنجد به قائلة: ((إن ابني مع تميم ابن زيد القيني بالسند، وقد اشتقت إليه، فإن رأيت أن تكتب إليه في أن يقفله إلي)) فكتب إلى تميم:

تميم ابن زيد لا تكونن حاجتي بظهر فلا يخفى علي جوابها
أتتني فعاذت يا تميم بغالب وبالحفرة السافي عليه ترابها
فهب لي (خنيساً) واتخذ فيه منّةً أهبه لأم لا يسوغ شرابها

فلما ورد الشعر على تميم أشكل عليه الأسم (لفقدان النقط على الحروف) فقال: ((اقفلوا كل من اسمه خنيس أو حبيش أو حنيش، أو حشيش، أو خشيش)) فعدوا فكانوا ثمانين رجلاً – الأضداد لابن الأنباري ص ٢٥٦ (لا تكونن حاجتي بظهر: لا تطرحْها).

(1) بغية الوعاة.

(2) مراتب النحويين ص ٢٣.

(3) عن مراتب النحويين ص ٢٨ والمزهر ٣٩٨/٢، وشهادة يونس ابن حبيب فيه: أنه ((لو كان في الناس اليوم من لـه ذهنه ونفاذه كان أعلم الناس)) – طبقات فحول الشعراء ص ١٤. هذا وللزبيدي كلم يشير إلى نصيب عيسى ابن عمر في تدريج النحو يقول فيه: ((وضع أبو الأسود باب الفاعل والمفعول لم يزد عليه... فزاد رجل من بني ليث أبواباً ثم نظر فإذا في كلام العرب ما لا يدخل فيه فأقصر عنه، فلما كان عيسى ابن عمر قال: أرى أن أضع الكتاب على الأكثر، وأسمي الأخرى لغات فهو أول من بلغ غايته في كتاب النحو... وضع كتابين سمى أحدهما الجامع والآخر المكمل)). طبقات النحويين واللغويين ص ١٥.

ذهب النحو جميعاً كله	غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك (إكمال) وهذا (جامع)	فهما للناس شمس وقمر

ثم ((فقد الناس هذين الكتابين منذ المدة الطويلة ولم يقعا إلى أحد علمناه، ولا خبر أحد أنه رآهما))، وهذا السيرافي وليس بينه وبين زمن المؤلف إلاّ مئتان من السنين يقول: ((لم يقعا إلينا ولا رأينا أحداً ذكر أنه رآهما))[1] فإن تكن نسبة البيتين إلى الخليل صحيحة يكن اختفاء هذين الكتابين من أعجب الأمور في تاريخ النحو.

* * *

إذا نحن انتقلنا إلى الطبقة التي تلي هذه كنا إزاء ما سموه بالمذهب الكوفي، فقد تتلمذ على عيسى ابن عمر هذا: الخليل وسيبويه وأبو زيد الأنصاري أئمة البصريين الأعلام، وأبو جعفر الرؤاسي الذي صار فيما بعد رأس الكوفيين، وخلفه في ذلك تلميذاه الكسائي والفراء.

ولسنا نفيض في الكلام عليهم فكلهم مشهور، ولكننا نذكّر بالنواحي التي تعنينا منهم بكلمات:

فأما الخليل ((فقد كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه، هو أول من استخرج العروض، وحصر أشعار العرب بها، وعمل أول (كتاب العين) المعروف المشهور الذي به تهيأ ضبط اللغة))[1] إلى نواح أخرى له مجيدة مشرفة ليس من غرضنا هنا الإشارة إليها. وقد اشتهر نمط من آرائه في باب القياس. ((وهو أستاذ سيبويه، وعامة الحكاية في كتابه عنه. وكلما قال سيبويه: ((سألته))، أو قال: ((قال)) من غير أن يذكر قائله فهو الخليل)). ونفع الله به الناس وعاش من قناعته وعفته وترفعه في عزة دونها عزة الملوك، وصدق النضر ابن شميل في قوله: ((أقام الخليل في خصّ بالبصرة لا يقدر على فلسين وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال))[2].

وأما أبو زيد الأنصاري فقد كان ثقة صدوقاً راوية، وهو – وإن قدم في النحو على الأصمعي وأبي عبيدة – غلبت عليه اللغة والنوادر والغريب، وحولها يدور أكثر مصنفاته[1].

وندع سيبويه – لشهرة أمره وكتابه وشيوخه وتلاميذه – إلى أبي جعفر الرؤاسي رأس الكوفيين.

---

(1) انظر الفهرست لابن النديم ص ٦٢ وبغية الوعاة. أما ابن الأنباري في نزهة الألباء فقد نقل عن المبرد أنه قال: ((قرأت أوراقاً من أحد كتابي عيسى ابن عمر، وكان كالإشارة إلى الأصول)). وبين هذه الكلمة الدالة على أنه خطوة ابتدائية وتقريظ الخليل بون كما ترى. – هذا ويذكرون أنه كان فصيحاً ويتقعر أحياناً، أمر والي العراق بحمله إليه ودعا بالحداد فأمر بتتقييده، فقيل له: ((لا بأس عليك، إنما أرادك الأمير لتؤدب ولده)). قال: ((فما بال القيد إذن؟))، فذهبت بالبصرة مثلاً. وله الجملة المأثورة في كتب البلاغة حين سقط عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال: ((ما لكم تكأكأتم علي كتكأكئكم على ذي جنة، افرنقعوا عني)) انظر بغية الوعاة وأخبار النحويين البصريين ص ٣٢.

(1) أخبار النحويين البصريين ص ٣٨.

(2) بغية الوعاة.

(1) بغية الوعاة.

مدرسة الكوفة

أبو جعفر الرؤاسي

طلب العلم في البصرة على أئمتها، قرأ على أبي عمرو ابن العلاء، وعلى عيسى ابن عمر الثقفي، لكنه لم يقارب أحداً من تلامذتهم فلم ينبه، وعاش بالبصرة غير معروف[1]، وكان أول كوفي ألف في العربية، وكتابه (الفيصل) عرضه – فيما ذكروا – على أصحاب النحو بالبصرة فلم يلتفتوا إليه، ولا جسر على إظهاره لما سمع كلامهم، أما هو فيزعم أن الخليل طلب الكتاب فأطلعه عليه، ((فكل ما في كتاب سيبويه: ((قال الكوفي كذا)) فإنما عنى الرؤاسي هذا))[2]. وزعم جماعة من البصريين أن الكوفي الذي يذكره الأخفش في آخر المسائل ويرد عليه الرؤاسي(٢).

(1) انظر معجم البلدان ١٢٣/١٨. وأخذ عن زهير الفرقبي (١٥٥) الذي تتلمذ على ميمون الأقرن أحد أصحاب أبي الأسود – إنباه الرواة ١٨/٣، ١٩.

(2) بغية الوعاة. وذكره أبو الطيب اللغوي في عداد من أخذ عن أبي عمرو فقال: ((عالم أهل الكوفة، وليس بنظير لهؤلاء الذين ذكرنا ولا قريب منهم.. أخبرنا أبو حاتم قال: كان بالكوفة نحوي يقال له: أبو جعفر الرؤاسي، وهو مطروح العلم ليس بشيء)) – مراتب النحويين ص ٢٤.

ويعد من قراء الكوفيين، وسترى من أسماء كتبه الموضوعات التي عني بها: كتاب التصغير، الإفراد والجمع، الوقف والابتداء، معاني القرآن.

ولما رجع إلى الكوفة وجد فيها عمه معاذ بن مسلم الهراء (- ١٨٧هـ) مرجع الناس في العربية وعني بالصرف ومسائله خاصة، وتبعه في هذه العناية من قرأ عليه من الكوفيين، حتى قيل: إنهم فاقوا البصريين فيها، ومن هنا عدهم بعض العلماء واضعي علم الصرف.

وتخرج بالرؤاسي تلميذاه المشهوران: الكسائي والفراء.

أما الكسائي فأنت تعرف أنه أعجمي الأصل وأحد القراء السبعة، وإمام الكوفيين في العربية، أخذ عن يونس أحد أئمة البصرة وجلس في حلقة الخليل، ثم خرج إلى بوادي نجد والحجاز وتهامة يأخذ عن الأعراب ((فأنفد خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ. فقدم البصرة فوجد الخليل قد مات وفي موضعه يونس. فجرت بينهما مسائل أقر له فيها يونس وصدره في موضعه))[١].

ثم انتقل إلى بغداد فعاش في قصر الرشيد مؤدباً للأمين والمأمون، ونال الحظوة، وأقبلت عليه الدنيا: يخدمه وليا العهد، ويعنى به ويعوده الرشيد نفسه. ولما خرج الرشيد إلى الري اصطحب معه الكسائي ومحمد ابن الحسن الشيباني فاتفق أن ماتا سنة ١٨٩ في يوم واحد فقال الرشيد: ((دفنت الفقه والنحو في يوم واحد)).

وأما الفراء فقد قرأ بالبصرة على يونس ابن حبيب، ثم قرأ على الرؤاسي، ثم لازم الكسائي في بغداد. والذي حثه على الخروج إلى بغداد شيخه الرؤاسي.

ولندع الفراء نفسه يحدثنا بأول أمره ببغداد قال:

قال لي الرؤاسي: ((قد خرج الكسائي (إلى بغداد) وأنت أسن منه)) فجئت إلى بغداد فرأيت الكسائي فسألته عن مسائل من مسائل الرؤاسي، فأجابني بخلاف ما عندي، فغمزت قوماً من علماء الكوفيين كانوا معي، فقال: ((مالك قد أنكرت؟ لعلك من أهل الكوفة؟)) فقلت: ((نعم)) فقال: ((الرؤاسي يقول كذا وكذا.. وليس صواباً، وسمعت العرب تقول كذا وكذا.. حتى أتى على مسائلي فلزمته)) اهـ[١].

والطريف تشاد البصريين والكوفيين في قراءة الفراء على يونس ابن حبيب البصري أستاذ سيبويه تشاداً على غير المنتظر، ((فالكوفيون يزعمون أنه استكثر عنه والبصريون يدفعون ذلك)) ثم كان الفراء ((زائد العصبية على سيبويه وكتابه تحت رأسه)).

صنف (معاني القرآن) الذي قال فيه مادحه: ((لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه))[٢].

وكتبه التي تركها تدور حول مسائل من اللغة والنوادر والصرف والنحو والقرآن. أما كتابه الكبير في النحو المسمى بـ (الحدود) فقد ذكروا أنه يشتمل على ستة وأربعين حداً في الإعراب. ويعنينا منه هنا قصته فهي تدل على بدع عجيب عرف به بعض النحاة، وأثر في سير هذا العلم أثراً سيئاً، ذلك هو الإغراب والتعقيد، قالوا:

---

(1) بغية الوعاة.
(1) بغية الوعاة
(2) الفهرست ص ٩٦.

كان السبب في إملائه الحدود أن جماعة من أصحاب الكسائي صاروا إليه وسألوه أن يملي عليهم أبيات النحو ففعل، فلما كان المجلس الثالث قال بعضهم لبعض: ((إن دام هذا على هذا علم النحو الصبيان! والوجه أن يُقعد عنه))، فقعدوا فغضب وقال: ((سألوني القعود فلما قعدت تأخروا، والله لأملين النحو ما اجتمع اثنان)) فأملى ذلك ست عشرة سنة[1].

وأنا حائر في التوفيق بين نزعة التسهيل والتبسيط هذه التي في القصة وقولهم في ترجمته: ((كان يتفلسف في تأليفاته ومصنفاته، يعني يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة))[1].

وتكفينا هذه الإلماعة عن رجال المدرستين[2] محاولين تتبع الخلاف ومعرفة طبيعته.

---

[1] المصدر السابق ص ٩٩.

(2) نشر (مراتب النحويين) لأبي الطيب اللغوي المتوفى سنة ٣٥١، وجاء فيه – بعد أن سرد تراجم أعيان البصريين ثم الكوفيين – قوله:

((والذين ذكرنا من الكوفيين فهم أئمتهم في وقتهم، وقد بينا منزلتهم عند أهل البصرة، فأما الذين ذكرنا من علماء البصرة فرؤساء علماء معظمون غير مدافعين في المصرين جميعاً؛ ولم يكن بالكوفة ولا في مصر من الأمصار مثل أصغرهم في العلم بالعربية، ولو كان لافتخروا به، وباهوا بمكانه أهل البلدان، وأفرطوا في إعظامه كما فعلوا بحمزة الزيات.. يتخذونه إماماً معظماً مقدماً وليس يحكى عنه شيء من العربية ولا النحو، وإنما هو صاحب قراءة، وأما عند البصريين فلا قدر لـه)) ص ٢٦.

(٢) نشأة الخلاف واحتكاك المدرستين

أول ما يعرف من الخلاف بين البصريين والكوفيين ما أثبته سيبويه في (الكتاب) من حكاية أقوال (الكوفي) أبي جعفر الرؤاسي على ما علمت آنفاً. والظاهر أن مرافقة الرؤاسي للخليل في القراءة على عيسى ابن عمر جعلت بينهما نوعاً من الأنس سمح للخليل أن يطلب من الرؤاسي كتابه، فروى منه بعض أقوال لتلميذه سيبويه، فأثبتها هذا في كتابه.

ولم يكن في هذا الخلاف ولا في غيره مما حدث بين البصريين أنفسهم يومئذ، أكثر من المذاكرة وحكاية الأقوال المخالفة والرد عليها أحياناً. فأنت كثيراً ما تجد سيبويه يورد لشيخيه يونس والخليل أقوالاً يخالفها فيقول: (.. وزعم الخليل)، (... وزعم يونس).

ولم تدخل الدنيا بين المشهورين من رجال هذه الطبقة، فالخليل والرؤاسي مثلاً كلاهما صالح عفيف، ومتى خلت المناقشات العلمية مما يؤرثها من حوافز المادة أو الجاه بقيت هادئة جميلة صافية.

فلما قرَّب العباسيون الكسائي وتلاميذه وخصوهم بتربية أولادهم وبالإغداق عليهم، إذ كان أهل الكوفة بالجملة أخلص لهم وأحسن سابقة معهم على عكس أهل البصرة، اجتهد المقربون في التمسك بدنياهم التي نالوها، ووقفوا بالمرصاد للبصريين الذين يفوقونهم علماً فحالوا بينهم وبين النجاح المادي أو المعنوي بكل ما يستطيعون من قوة؛ وإذا كان لبصري كالأصمعي مثلاً حظوة عند خليفة ولم يقدروا على إبعاده مادياً، اجتهدوا في الغض من علمه.

وأنا أعرض أنماطاً من خلافهم في المجالس الرسمية تفصح عن العصبية والحدة وحب النيل من المنافس، أعرض ذلك ليكون مدخلاً للكلام على المذهبين بعد أن عرفنا رجالهما الأولين. ولا تستغربن أن تكون الحدة والعصبية أظهر على الكوفيين، وحب الغلبة عندهم أشد، فهم عن دنياهم وجاههم يدافعون، إذ علموا علم اليقين أن علمهم إزاء علم البصريين قليل[1]، ولذا كان الخطر من هؤلاء ماثلاً أمام الكوفيين، ولعين الكسائي منهم خاصة، ولم يرو عن كوفي عنف مثل عنف الكسائي هذا، ولا حرص على الإجهاز على الخصم المنافس كما روي عنه، وإليك الشواهد:

بين الكسائي والأصمعي

حدث أحمد ابن يحيى ثعلب أحد أئمة الكوفيين قال:

((كان الكسائي والأصمعي بحضرة الرشيد، وكانا ملازمين لـه يقيمان بإقامته ويظعنان بظعنه، فأنشد الكسائي:

أنّى جزوْا عامراً سوءى بفعلهم	أم كيف يجزونني السوءى من الحسن

(1) قال أبو حاتم: ((لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب، - ولولا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا ذكره لم يكن شيئاً، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل إلا حكايات عن الأعراب مطروحة، لأنه كان يلقنهم ما يريد، وهو على ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن، وهو قدوتهم وإليه يرجعون)). مراتب النحويين ص ٨٤.

هذا وقد علمت آنفاً أن الرؤاسي شيخ الكسائي أقام بالبصرة فلم يرتفع لـه فيها ذكر، ولا عد علمه شيئاً إزاء علم البصريين. ومهما جعلت للمبالغة نصيباً في قول أبي حاتم فأنت مطمئن إلى ستر الكوفيين قصورهم عن منافسيهم بالشعب والسلطان الذي كان لهم.

أم كيف ينفع ما تعطي العلوقُ به | رئمان أنف إذا ما ضن باللبن

فقال الأصمعي: ((إنما هو رئمانَ أنف، بالنصب)) فقال له الكسائي: ((اسكت ما أنت وذاك؟ يجوز بالرفع والنصب والخفض: أما الرفع فعلى الرد على (ما) لأنها في موضع رفع بـ (ينفع) فيصير التقدير (أم كيف ينفع رئمانُ أنف)، والنصب بـ (تعطي)، والخفض على الرد على الهاء التي في (به))). فسكت الأصمعي ولم يكن له علم بالعربية، وكان صاحب لغة، لم يكن صاحب إعراب))[1].

عدوا الكسائي فائزاً في هذه المناظرة، ولعل المجلس تقوّض على ذلك، ولكننا الآن لا نعده كذلك. فالأصمعي راوية ثبت صدوق وهو في الرواية والأخبار أقوى من الكسائي، والكسائي أورد وجوه الإعراب المحتملة، أما الأصمعي فإنما يرد صاحبه إلى الرواية[1] وشتان ما بين الأمرين.

وللأصمعي مجلس آخر مع الكسائي أمام الرشيد كال له فيه الصاع صاعين وحكم له الرشيد حكماً لزم الكسائي عاره:

قال له الأصمعي وهما عند الرشيد: ((ما معنى قول الراعي:

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ودعا فلم أر مثله مخذولا؟))

قال الكسائي: ((كان محرماً بالح)).

قال الأصمعي: ((فقوله:

قتلوا كسرى بليل محرماً فتولى لم يمتع بكفن

هل كان محرماً بالحج))؟؟؟

فقال هارون للكسائي: ((يا علي إذا جاء الشعر فإياك والأصمعي))[2].

٢- بين الكسائي وسيبويه

قال الفراء: ((قدم سيبويه على البرامكة فعزم يحيى بن خالد أن يجمع بينه وبين الكسائي؛ وجعل لذلك يوماً، فلما حضر تقدمت وابن الأحمر[1] فدخل فإذا بمثال في

---

(1) إرشاد الأريب ١٨٣/١٣ وأمالي الزجاجي ص ٣٤ (المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر بمصر) والبيتان لأفنون التغلبي (انظر المفضليات للضبي ٦٣/٢ طبعة دار المعارف بالقاهرة)

العلوق: الناقة تفقد ولدها بنحر أو موت، فيسلخ جلده ويحشى تبناً ويقدم إليها لترأمه (أي تعطف عليه) ويدر لبنها فينتفعوا به، فهي تشمه وينكره قلبها فتعطف عليه ولا ترسل اللبن، فشبه ذلك بهذا.

والبيت مثل يضرب لمن يعدك بلسانه كل جميل ولم يفعل منه شيئاً، لأن قلبه منطو على ضده، كأنه قيل لـه: كيف ينفعني قولك الجميل إذا كنت لا تفي به. – اهـ عن المصدر الأول بتصرف يسير.

هذا وقد علق ابن الشجري حين عرض هذه القضية بقوله:

((ولنحاة الكوفيين في أكثر كلامهم تهاويل فارغة من حقيقة)) ٣٢/١.

(1) بل إن المعنى لينصر رواية الأصمعي ويرفض رواية الرفع ((وصوب ابن الشجري إنكار الأصمعي فقال: لأن في رفعه إخلاء (تعطي) من مفعوله لفظاً وتقديراً، والجر أقرب إلى الصواب قليلاً؛ وإنما حق المعنى والإعراب النصب)) انظر مغنى اللبيب بحث (أم). وللكسائي مثل هذا التخبط مع عيسى ابن عمر ألقى عيسى مسألة فذهب يوجه احتمالاته فقال عيسى: ((عافاك الله، إنما أريد كلام العرب، وليس هذا الذي تأتي به بكلامها)) – إنباه الرواة ٣٧٧/٢.

(2) أخبار النحويين البصريين ص ٥٩ – محرم أي لم يحل من نفسه شيئاً يوجب القتل، وقوله: (محرماً) في كسرى يعني حرمة العهد الذي لـه في أعناق أصحابه. هذا وقد سجلوا للكسائي طلبه الهدنة من الأصمعي، قال الأصمعي: ((أرسل إلي الكسائي بأبي نصر وقال: ((لست أعرض لك في الشعر والغريب والمعاني فدعني والنحو)) فوجهت إليه: :ما كلمتك قط في النحو إلا بحجة أصحابي وقد تركت ذلك لك)). – إنباه الرواة ٢٧٢/٢.

(1) هو علي ابن الحسن الأحمر تلميذ الكسائي وخليفته على تعليم أولاد الرشيد كما سيأتي. وفي المغنى وحاشية الدسوقي عليه (١٢٩/١) أنه خلف الأحمر وهذا سهو منهما رحمهما الله، إذ إن خلفاً بصريٌّ ولا تعرف لـه تلمذة على الكسائي، بل أين هذا من هذا؟

صدر المجلس فقعد عليه يحيى، وقعد إلى جانب المثال جعفر والفضل ومن حضر بحضورهم، وحضر سيبويه فأقبل عليه الأحمر فسأله عن مسألة فأجابه فيها سيبويه فقال له: ((أخطأت))، ثم سأله عن ثانية وثالثة كل ذلك يقول له: ((أخطأت)) فقال سيبويه: ((هذا سوء أدب)).

فأقبلت عليه فقلت: ((إن في هذا الرجل حدة وعجلة، ولكن ما تقول فيمن قال: ((هؤلاء أبون، ومررت بأبين)) كيف تقول على مثال ذلك من (وأيت) أو (أويت) فأجاب فأخطأ فقلت له: ((أعد النظر.. ثلاث مرات تجيب ولا تصيب[٢]، فلما كثر عليه ذلك قال: لست أكلمكما أو يحضر صاحبكما حتى أناظره)).

فحضر الكسائي فأقبل على سيبويه فقال: ((أتسألني أم أسألك))؟ فقال: ((بل سلني أنت)). فقال له الكسائي: ((كيف تقول: قد كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي. أو (فإذا هو إياها)؟)) فقال سيبويه: ((فإذا هو هي، ولا يجوز النصب)). فقال له الكسائي: ((لحنت)).

ثم سأله عن مسائل من هذا النوع: (خرجت فإذا عبد الله القائمُ) أو (القائمَ)؟ فقال سيبويه في ذلك كله بالرفع دون النصب، فقال الكسائي: ((ليس هذا من كلام العرب، العرب ترفع في ذلك كله وتنصب)). فدفع سيبويه قوله، فقال يحيى ابن خالد: ((قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما، فمن ذا يحكم بينكما))؟ فقال له الكسائي: ((هذه العرب في بابك قد جمعتهم من كل أوب، ووفدت عليك من كل صقع، وهم فصحاء الناس، وقد قنع بهم أهل المصرين، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم، فيحضرون ويسألون))، فقال يحيى وجعفر: ((قد أنصفت فأمر بإحضارهم فدخلوا فهم: أبو فقعس وأبو دثار وأبو الجراح وأبو ثروان فسئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه، فتابعوا الكسائي وقالوا بقوله، فأقبل يحيى على سيبويه فقال: ((قد تسمع أيها الرجل)). فاستكان سيبويه[١].

ولم يختلف البصريون حتى اليوم في أن القول ما قال سيبويه وأن الموضع ليس بموضع نصب، وأن هؤلاء الأعراف أعراب الحُطمية الذي كان الكسائي يقوم بهم ويأخذ عنهم. ثم جاء ثعلب فاحتال وجهاً للنصب فقال: ((وإنما أدخل الفاء في قوله: (فإذا هو إياها) لأن (فإذا): مفاجأة أي (فوجدته ورأيته) فـ (وجدت ورأيت) ينصب شيئين ويكون معه خبر فلذلك نصبت العرب)).

قلت: وهو وجه غير صحيح ولو صح أن (فإذا = وجدت) لوجب أن يقال (فاذا إياه إياها)، ولم يدّع ذلك حتى الكوفيون.

٣- بين الكسائي واليزيدي

---

(2) قال ابن هشام الأنصاري بعد شرحه هذه المسألة: ((وليس هذا مما يخفى على سيبويه ولا على أصاغر الطلبة، ولكنه كما قال أبو عثمان المازني: ((دخلت بغداد فألقيت علي مسائل فكنت أجيب فيها على مذهبي ويخطئونني على مذاهبهم)) وهكذا اتفق لسيبويه رحمه الله)) مغني اللبيب (مادة إذا).

(1) إرشاد الأريب ١٨٥/١٣ – ١٨٨ ومغني اللبيب في بحث إذا. – وأقبل الكسائي على يحيى فقال: ((أصلح الله الوزير، إنه قد وفد عليك من بلده مؤملاً فإن رأيت ألا ترده خائباً)) فأمر لـه بعشرة آلاف درهم، فخرج وصير وجهه نحو فارس فأقام هناك حتى مات ولم يعد إلى البصرة. اهـ.

فيقال: إن هؤلاء الأعراب رشوا فوافقوا الكسائي، وقيل: تملقوه إرضاء للوزير، ولم ينطقوا بالنصب وإنما قالوا: القول قول الكسائي.

وقد ختم ابن الشجري هذا المجلس بأن الكسائي ((إنما قصد سؤاله عما علم أنه لا وجه لـه في العربية، واتفق هو والفراء على ذلك، ليخالفه سيبويه فيكون الرجوع إلى السماع، فيقطع المجلس عن النظر والقياس)) أمالي ابن الشجري ٢٠٦/١.

لقد سلط الله على الكسائي من يثأر منه للأصمعي وسيبويه، فأذاقه على يدي يحيى ابن المبارك اليزيدي ما كان كفاء لعصبيته على البصريين. ويحيى هذا بصري قرأ على أبي عمرو ابن العلاء والخليل ابن أحمد، واتصل بخال المهدي ويزيد ابن منصور الحميري فأدب أولاده، وإليه نسب فقيل (اليزيدي). ولم يستطع الكسائي أن يغلبه بجاهه فعاش حياته تنزل عليه منه الضربات في المناظرة والهجاء بالأشعار. ثم كان مؤدب المأمون كما كان الكسائي مؤدب الأمين، وإليك مجلسين من مجالسهما أولهما قبل مناظرة سيبويه وثانيهما بعدها:

١- قال اليزيدي

((كنا في بلد مع المهدي في شهر رمضان قبل أن يستخلف بأربعة أشهر فتذاكروا عنده النحو والعربية، وكنت متصلاً بخاله يزيد ابن منصور والكسائي مع ولد الحسن الحاجب، فبعث إليّ وإلى الكسائي، فصرت إلى الدار، فإذا الكسائي بالباب قد سبقني فقال لي: ((أعوذ بالله من شرك يا أبا محمد)) فقلت: ((والله لا تؤتى من قبلي أو أوتى من قبلك)).

فلما دخلنا على المهدي أقبل علي فقال: ((كيف نسبوا إلى البحرين فقالوا: (بحراني)؟ وإلى الحصنين فقالوا (حصني)؟ هلا قالوا حصناني كما قالوا بحراني))؟ فقلت: ((أيها الأمير، لو قالوا في النسب إلى البحرين (بحري) لالتبس فلم يدر: النسبة إلى (البحرين) وقعت أم إلى البحر؟ فزادوا ألفاً للفرق بينهما كما قالوا في النسب إلى الروح: روحاني؛ ولم يكن لـ (حصنين) شيء يلتبس به فقالوا: (حصني) على القياس)).

فسمعت الكسائي يقول لعمرو ابن بزيغ: ((لو سألني الأمير عنهما لأجبته بأحسن من هذه العلة)). فقلت: ((أصلح الله الأمير، إن هذا يزعم أنك لو سألته أجاب بأحسن من جوابي))، قال: ((فقد سألته)). قال: ((كرهوا أن يقولوا (حصناني) فيجمعوا بين نونين، ولم يكن في البحرين إلاّ نون واحدة فقالوا (بحراني) لذلك)).

قلت: ((كيف تنسب إلى رجل من (بني جِنّان))) إن لزمت قياسك فقلت: (جني) جمعت بينه وبين المنسوب إلى الجن، وإن قلت (جناني) رجعت عن قياسك وجمعت بين ثلاث نونات)).

ثم تفاوضنا إلى أن قلت له: ((كيف تقول: إن من خير القوم وأفضلهم أو خيرهم بتة زيد))؟ فأطرق مفكراً وأطال الفكرة فقلت: ((أصلح الله الأمير، لأن يجيب فيخطئ فيتعلم، أحسن من هذه الإطالة)). فقال: ((إن خير القوم وأفضلهم أو خيرهم زيداً)) فقلت: ((أخطأ أيها الأمير)) قال: ((وكيف))؟ قلت: ((لرفعه قبل أن يأتي باسم إن، ونصبه بعد الرفع، وهذا لا يجيزه أحد)).

فقال شيبة ابن الوليد عم ذفافة متعصباً لـه: ((أراد بـ (أو): بل)) فقلت: ((هذا لعمري معنى))، فلقنه الكسائي فقال: ((ما أردت غيره)). فقلت: ((أخطأتما جميعاً! لأنه غير جائز أن يقال: إن من خير القوم وأفضلهم، بل خيرهم زيداً)) فقال المهدي: ((يا كسائي، ما مر بك مثل اليوم)). قال: ((فكيف الصواب عندك؟)) فقلت: ((إن من خير القوم وأفضلهم أو خيرَهم بتة زيد، على معنى تكرير إن)). فقال المهدي: ((قد اختلفتما وأنتما عالمان، فمن يفصل بينكما))؟ قلت: ((فصحاء العرب

المطبوعون)) فبعث إلى أبي المطوق، فعملت أبياتاً إلى أن يجيء، وكان المهدي يميل إلى أخواله من اليمن (وابن منصور الحميري حاضر) فقلت:

يا أيها السائلي لأخبره	عمن بصنعاء من ذوي الحسب
حمير ساداتها، تقر لها	بالفضل طراً جحاجح العرب
فإن من خيرهم أفضلهم	أو خيرّهم بتةً أبو كرب

فلما جاء أبو المطوق أنشدته الأبيات وسألته عن المسألة فوافقني[1].

٢- في حضرة الرشيد

سأل الرشيد اليزيدي والكسائي عن قصر (الشراء) ومده، فقال الكسائي: ((مقصور لا غير))، وقال اليزيدي: ((يقصر ويمد))، فقال الكسائي: ((من أين لك؟)) فقال اليزيدي: ((من المثل السائر: لا يغتر بالحرة عام هدائها ولا بالأمة عام شرائها)). فقال الكسائي: ((ما ظننت أن أحداً يجهل مثل هذا)) فقال اليزيدي: ((ما ظننت أن أحداً يفتري بين يدي أمير المؤمنين مثل هذا))[1].

٣- في حضرة الرشيد أيضاً

سأل اليزيدي الكسائي بحضرة الرشيد قال: ((انظر، في هذا الشعر عيب؟)) وأنشده:

ما رأينا خَرباً نقـ	ـقَرَ عنه البيضَ صقرُ[2]
لا يكونُ العَيْر مهراً	لا يكون، المهرُ مهرُ

فقال الكسائي: ((قد أقوى الشاعر)) فقال اليزيدي: ((انظر فيه)) فقال: ((أقوى، لا بد أن ينصب المهر الثاني على أنه خبر كان)).

---

(1) أمالي الزجاجي ص ٤٠ ثم قال الزجاجي: ((المسألة مبنية على الفساد للمغالطة فأما جواب الكسائي فغير مرضيٍ عند أحد)). وجواب اليزيدي غير جائز عندنا لأنه أضمر (أن) وأعلمها وليس من قوتها أن تضمر فتعمل... والصواب عندنا في المسألة أن يقال: ((إن من خير القوم وأفضلهم أو خيرهم البتة زيد)) فتضمر اسم أن فيها وتستأنف بعدها. اهـ قلت: يريد أن اسمها ضمير شأن محذوف.
هذا والقصة في الأغاني (٧٦/١٨) وفيها ثمة اختلاف يسير وبعض نقص وإخلال، أما الزيادة فيها فطريفة لدلالتها على أن العصبية في النحو لم تقتصر على النحاة، بل تناولت كبار رجال الدولة وأغرتهم بالتحيز، ولم ينج شيبة ابن الوليد هذا وهو أحد قواد المهدي من شرها، وإليك تتمة الخبر برواية الأغاني على لسان أبي محمد نفسه:
((فقال لي المهدي: كيف تنشده أنت! فقلت: ((أوخيرهَم بتة أبو كرب)) على إعادة (إن) كأنه قال: (أو إن خيرهم بتة أبو كرب))) فقال الكسائي: ((هو والله قالها الساعة)). فتبسم المهدي وقال: ((إنك لتشهد لـه وما تدري))، ثم طلع الأعرابي الذي بعث إليه فألقيت عليه المسائل فأجاب فيها كلها بقولي فاستفزني السرور حتى ضربت بقلنسيتي الأرض وقلت: ((أنا أبو محمد)) فقال لي شيبة: ((أتكتني بأسم الأمير!)). فقال المهدي: ((والله ما أراد بذلك مكروهاً، ولكنه فعل ما فعل للظفر، وقد لعمري ظفر)) فقلت: ((إن الله عز وجل أنطقك أيها الأمير بما أنت أهله وأنطق غيرك بما هو أهله))، فلما خرجنا قال لي شيبة: ((أتخطئني بين يدي الأمير! أما لتعلمن)) قلت: ((قد سمعت ما قلت وأرجو أن تجد غبها)) ثم لم أصبح حتى كتبت رقاعاً عدة، فلم أدع ديواناً إلا دسست ليه رقعة فيها أبيات قلتها فيه، فأصبح الناس يتناشدونها وهي:

عش بجد ولا يضرك نوك ... إنما عيش من ترى بالجدود
عش بجد وكن هبنقة القيـ ... ـسي نوكاً أو شيبة بن الوليد

(1) قوله (مثل هذا) ساقط (من المصباح المنير) وعنه روينا الخبر وهو موجود في التاج نقلا عن المصباح فلعل الكلمة سقطت من مطبوعة الأميرية.

(2) إرشاد الأريب ١٧٨/١٣. – الخرب ذكر الحبارى، والمعنى لا يحاول الصقر استخراج صقر من بيضة الحبارى. و(يكون) الثانية التي في البيت الثاني توكيد لفظي للأولى وأراد الكسائي بـ (أقوى) التي بعد البيتين: لحن.

فضرب اليزيدي بقلنسوته الأرض وقال: ((أنا أبو محمد، الشعر صواب، وإنما ابتدأ فقال: المهرُ مهرُ)).

فقال لـه يحيى بن خالد: ((أتكتني بحضرة أمير المؤمنين وتكشف رأسك؟ والله لخطأ الكسائي مع أدبه أحبّ إلينا من صوابك مع سوء فعلك)).

فقال: ((لذة الغلبة أنستني من هذا ما أحسن))[٣].

٤- بين المازني ونحاة كوفيين

حضر المازني ونحاة كوفيون مجلس الواثق يوماً فقال الواثق – وهذه رواية المازني نفسه –:

((يا مازني هات مسألة)) قلت: ((ما تقولون في قول الله تبارك وتعالى: {وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً} [مريم: ٢٨/١٩]: لِمَ لَمْ يقل: (بغية) وهي صفة لمؤنث))؟ فأجابوا بجوابات غير مرضية، فقال لي: ((هات)). قلت: ((لو كان بغي)) على تقدير (فعيل) بمعنى (فاعلة) للحقتها الهاء مثل كريمة وظريفة، وإنما تحذف الهاء إذا كانت في معنى مفعولة في نحو (امرأة قتيل، وكف خضيب)؛ و (بغي) ها هنا ليس بفعيل إنما هو (فعول) لا تلحقه الهاء في وصف التأنيث نحو (امرأة شكور وبئر شطون إذا كانت بعيدة الرشاء)، وتقدير (بغي): (بغُوي) قلبت الواو ياء، ثم أدغمت الواو في الياء فصارت ياء ثقيلة نحو (سيد وميت) فاستحسن الجواب))[١].

٥- بين المازني وابن السكيت

قال المازني:

حضرت يوماً مجلس المتوكل وحضر يعقوب بن السكيت؛ فقال المتوكل: ((تكلّما في مسألة نحوية)) فقلت له: ((اسأل)) فقال: ((اسأل أنت))، فقلت له:

- ما وزن (نكْتل) اللفظة الواردة في الآية المذكورة فيها قصة أُخوة يوسف؟

فتسرع وقال: - وزنها (نفعل).

فقلت له: ((ائتد وانظر)). فأفكر ثم قال:

- وزنها (نفتعل).

فقلت: - (نكتل) أربعة أحرف و(نفتعل) خمسة أحرف، فكيف تقدر الرباعي بالخماسي؟ فبهت ولم يحر جواباً.

فقال المتوكل: فما تقول أنت يا مازني؟

قلت: - وزنها في الأصل (نفتعل) لأنها (نكتيل) فلما تحرك حرف العلة وهو الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً فصارت (نكتال) ولما دخل الجازم صارت (نكتل). (ووزنها نفتل).

فقال المتوكل: هذا هو الحق، وانخذل ابن السكيت ووجم، وظهر ذلك عليه.

---

(3) المصدر السابق، هذا ولليزيدي كلمة في المقابلة بين أبي عمرو ابن العلاء والكسائي لا يحسن إغفالها فقد جمع الفضل ابن الربيع بينه وبين علي الأحمر الكوفي وسألهما: ((من كان أعلم بالنحو الكسائي أو أبو عمرو ابن العلاء؟)) فكان مما قال اليزيدي وكان تلميذ أبي عمرو: ((لم يكن أحد بالنحو أعلم من أبي عمرو... لأنه جاور البدو أربعين سنة ولم يقم الكسائي بالبدو أربعين يوماً!!)) – مجالس العلماء للزجاجي ص ١٧١ طبعة حكومة الكويت.

(1) طبقات النحويين واللغويين ص ٩٥.

فلما خرجنا قال ابن السكيت في الطريق: ((بالغت اليوم في أذاي)) فقلت لـه: ((لم أقصدك بشيء مما جرى، وإنما مسألة كانت قريبة من خاطري، فذكرتها))[1].

٦- بين المبرد وثعلب

((حكي أن بعض الأكابر من بني طاهر سأل أبا العباس ثعلباً أن يكتب لـه مصحفاً على مذهب أهل التحقيق، فكتب (والضحى) بالياء، ومذهب الكوفيين أنه إذا كان كلمة من هذا النحو أولها ضمة أو كسرة كتبت بالياء وإن كانت من ذوات الواو، والبصريون يكتبون بالألف. فنظر المبرد في ذلك المصحف فقال: ((ينبغي أن يكتب (والضحا) بالألف لأنه من ذوات الواو، فجمع ابن طاهر بينهما:

فقال المبرد لثعلب: ((لم كتبت (والضحى) بالياء؟)) فقال: ((لضمة أوله)). فقال له: ((ولم إذا ضم أوله وهو من ذوات الواو تكتبه بالياء؟)).

فقال: ((لأن الضمة تشبه الواو، وما أوله واو يكون آخره ياء، فتوهموا أن أوله واو)) فقال المبرد: ((أفلا يزول هذا التوهم إلى يوم القيامة))؟؟!!.[1]

وفي كتاب (مجالس العلماء) للزجاجي عدد من المجالس بين المبرد وثعلب تظهر الفارق الكبير بين سداد المبرد وملكته وعلمه، وتخبط ثعلب في نقله وقياسه، ويفيد الاطلاع على هذا الكتاب جملة، وبين ص ١١٩ و ١٢٦ شيء من هذه المجالس بينهما (طبعة حكومة الكويت سنة ١٩٦٢).

٧- بين ثعلب والزجاج

قال الزجاج:

دخلت على أبي العباس ثعلب في أيام المبرد وقد أملى شيئاً من (المقتضب) فسلمت عليه وعنده أبو موسى الحامض، وكان يحسدني شديداً، ويجاهرني بالعداوة، وكنت ألين له وأحتمله لموضع الشيخوخة.

فقال لي ثعلب: ((قد حمل إليّ بعض ما أملاه هذا الخلدي (يعني المبرد) فرأيته لا يطوع لسانه بعبارة)). فقلت له: ((إنه لا يشك في حسن عبارته اثنان، ولكن سوء رأيك فيه يعيبه عندك)). فقال: ((ما رأيته إلا ألكن متغلقاً)).

فقال أبو موسى: ((والله إن صاحبكم (يعني سيبويه) ألكن)) فأحفظني ذلك ثم قال:

---

(1) إنباه الرواة ٢٥٠/١ وطبقات النحويين واللغويين ص ٩٤.

(1) إرشاد الأريب ١١٨/١٩.

هذا وقد تمثلت في الخصومة بينهما الخصومة بين البصريين والكوفيين عامة، واشترك فيها الشعر على هوى قائليه: فمحب للوفاق يقول:

أيا طالب العلم لا تجهلن وعذ بالمبرد أو ثعلب

وبصري يقول:

رأيت محمد ابن يزيد يسمو إلى الخيرات في جاه وقدر..
وكان الشعر قد أودى فأحيا أبو العباس دائر كل شعر
وقالوا: ثعلب رجل عليم وأين النجم من شمس وبدر
وقالوا: ثعلب يفتي ويملي وأين الثعلبان من الهزبر.إلخ

والظاهر أن حيوية هذه الخصومة جلبت إليها الوقود الكافي من المتعصبين حتى ذهبت مثلاً في الأدب فقال أحد المحبين يحن ويتشوق:

فأبداننا في بلدة والتقاؤنا عسير كأنا ثعلب والمبرد

((بلغني عن الفراء أنه قال: ((دخلت البصرة فلقيت يونس وأصحابه فسمعتهم يذكرون سيبويه بالحفظ والدراية وحسن الفطنة، فأتيت فإذا هو أعجم لا يفصح، سمعته يقول لجارية: ((هات ذيك الماء من ذاك الجرة)) فخرجت من عنده ولم أعد إليه)).

فقلت له: ((هذا لا يصح عن الفراء، وأنت غير مأمون في هذه الحكاية، ولا يعرف أصحاب سيبويه من هذا شيئاً، وكيف تقول هذا لمن يقول في أول كتابه: (هذا باب علمِ ما الكلمُ من العربية)؟ وهذا يعجز عن إدراك فهمه كثير من الفصحاء فضلاً عن النطق به)) فقال ثعلب: ((قد وجدت في كتابه نحواً من هذا: يقول: (حاشا) حرف يخفض ما بعده كما تخفض (حتى) وفيها معنى الاستثناء)).

فقلت: ((هذا كذا في كتابه، وهو صحيح؛ ذهب في التذكير إلى الحرف، وفي التأنيث إلى الكلمة)).

قال: ((والأجود أن يحمل الكلام على وجه واحد)).

قلت: ((كلٌّ جيد، قال الله تعالى: {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً} [الأحزاب: ٣١/٣٣] وقرئ: ((وتعمل صالحاً))، وقال عز وجل: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ} [يونس: ٤٢/١٠] ذهب إلى المعنى ثم قال: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ} [يونس: ٤٣/١٠] ذهب إلى اللفظ، وليس لقائل أن يقول: لو حمل الكلام على وجه واحد في الآيتين كان أجود، لأن كلاً جيد.

فأما نحن (يريد البصريين) فلا نذكر حدود الفراء، لأن صوابه فيه أكثر من أن يعد، ولكن هذا أنت يا ثعلب عملت كتاب (الفصيح) للمبتدئ المتعلم وهو عشرون ورقة أخطأت في عشرة مواضع منه.. إلخ)).

وفصل الزجاج هذه المواضيع مستشهداً بكلام العرب فانظرها في مظنتها. ثم قال الزجاج: ((فما قرئ عليه كتاب الفصيح بعد ذلك علمي، ثم بلغني أنه سئم ذلك، فأنكر كتاب الفصيح أن يكون له))[1].

وهم يصفون ثعلباً بغزارة الحفظ، لكنه ((لم يكن مع ذلك موصوفاً بالبلاغة، فإذا كتب كتاباً إلى بعض أصحاب السلطان ما خرج عن طبع العامة))[2].

* * *

في أكثر هذه الأخبار مجال لمن شك فيها أو توقف، فما فاز فيه الكسائي على خصمه عرفناه من رواية أنصاره الكوفيين؛ فراوي خبر الأصمعي والكسائي ثعلب وهو من أئمتهم، وراوي خبر سيبويه والكسائي هو الفراء تلميذ الكسائي، وراوي خبر اليزيدي هو اليزيدي نفسه.. ولم نسمع رواية الطرف الآخر ممن شاهد الوقائع. ومع هذا نستطيع اعتبارها واقعة كما رووها لنا ونمضي في بحثنا جاعلين عدم نقض البصريين لهذه الرواية – فيما علمنا – إقراراً منهم بمضمونها. ونلاحظ بعد ذلك الأمرين الآتيين:

١- لا يحتاج القارئ إلى كثير روية حتى يطمئن إلى أن الحق في كل هذه المناظرات كان بجانب البصريين: الأصمعي وسيبويه، واليزيدي، والمبرد؛ وأن حجج الكوفيين في هذه المسائل واهية.

---

(1) إرشاد الأريب ١٣٧/١ – ١٤٣ وانظر إنباه الرواة ١٤١/٣.
(2) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ١٥٧.

٢- لم تكن أكثر هذه المجالس عادلة، فميل السلطان إلى أحد الخصمين وتقريبه لـه ومكانته عنده، كل ذلك قوى نفسه فاستطاع على خصمه بدالته ولسانه وجاهه في القصر وعند الشهود، وتحدثت هذه المجالس بغلبته، إلى أن مضت الأيام وانقضت تلك الاعتبارات وحكم التاريخ فردّ الحق إلى أهله.

* * *

وبعد، فقد بلغ هذا الخلاف أجله، ودرج العلماء والمؤرخون على أن هناك مذهباً بصرياً وآخر كوفياً، فما معالم كل من المذهبين وما أهم الميزات لهذا وذاك؟

أبادر قبل بسط هذه المعالم إلى تسجيل أمرين لا بد منهما إذا أردنا الدقة في البحث والاحتياط في الأحكام:

١- نحن اليوم نملك من كتب البصريين عدداً صالحاً يساعدنا في إرسال الأحكام بشيء من الاطمئنان، فقد راجت في الأقطار منذ تأليفها حتى اليوم، وشرح منها الشيء الكثير، وتداولته الطلبة على مر السنين. ثم كان الذين ألفوا في طبقات النحويين وأخبارهم ممن طبعت كتبهم ينصر أكثرهم المذهب البصري، وكان النحو في الشام ومصر والمغرب والأندلس.. بصري الطابع في أكثر مسائله أغلب الأزمان، وهذا كله قد خدم كتب البصريين ونحوهم خدمة لم يحظ ببعضها المذهب الآخر.

أما للكوفيون فلم يطبع من كتبهم النحوية حتى الآن شيء فيما أعلم[١]، وإنما اطلعنا على أقوالهم في كتب المتأخرين منثورة على المسائل، أي إن آراءهم وردت في كتب خصومهم – مع شيء من التجوز – [٢] للرد عليها، فإن نحن اعتمدنا على ذلك في إصدار الأحكام، لم نكن إلى العدل في شيء. والحق يقضي ألا نرسل حكماً بين فريقين إلاّ بعد الاستماع إلى حجج كلٍّ من فيه. وهذا مع الأسف ليس ميسوراً الآن.

٢- هذه الميزات والمعالم الآتية بعد، ليست جامعة مانعة؛ فليست هناك قاعدة أجمع عليها نحاة البصرة وتوارد على معارضتها نحاة الكوفة، أو قال بها الآخرون جميعاً وعارضها الأولون جميعاً. بل كثيراً ما نجد العالم الواحد من أهل الكوفة مثلاً يذهب إلى أحكام يوافق فيها مذهب خصومه ويخالف أهل مصره. وطالما تجد هذه الظاهرة في كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري)[١] وفي كتب النحو الأخرى[٢]. وما أكثر ما نقرأ فيها: ((قال البصريون إلا فلاناً وفلاناً كذا، وذهب الكوفيون إلا فلاناً إلى كذا)).

---

(1) بل إني سردت تراجم النحاة في (بغية الوعاة للسيوطي) فلا أذكر أنه مر بي كتاب في النحو لكوفي بعد أئمته الأولين غير ما جاء في ترجمة أبي جعفر التنوخي المتوفي سنة ٣١٨هـ من أن لـه مؤلفاً في النحو على مذهب الكوفيين، إلا أن يكون مر شيء وغفلت عنه.

(2) وقفني قول الزجاجي وهو ممن خلط المذهبين – في كتاب الإيضاح (ص٨٠): ((أكثر ما أذكر من احتجاجات الكوفيين إنما أعبر عنه بألفاظ البصريين))؛ حتى إذا مضيت في مطالعة الكتاب وجدت علة ذلك في ص (١٣١) في قوله: ((... إذ لو تكلفنا حكاية ألفاظ الكوفيين بأعيانها لكان في نقل ذلك مشقة علينا من غير زيادة في الفائدة، بل لعل أكثر ألفاظهم لا يفهمها من لم ينظر في كتبهم، وكثير منها قد هذبها من نحكي عنه مذهب الكوفيين مثل ابن كيسان وابن شقير وابن الخياط وابن الأنباري...)) اهـ. قلت: وهذا فارق هام بين المدرستين حين لا يتضح مراد الواحدة إلا باستعارة عبارات الأخرى.

(1) انظر مثلاً المسألة الثالثة (١٩/١) في خلافهم حول الألف والواو والياء في التثنية والجمع: هل هي إعراب كالفتحة والضمة والكسرة أو هي حروف إعراب؟ فتجد الكوفيين قالوا بالأول، والبصريين بالثاني، ووافق قطرب (البصري) مذهب الكوفيين. وانشق المازني والمبرد والأخفش عن البصريين برأي ثالث.

(2) انظر مثلا مغني اللبيب: مادة (كلا) فقد اختلف في معناها الكسائي والفراء وكلاهما كوفي: قال

ولم يطرد الصواب في أحد المذهبين اطراداً، بل تجده تاره مع هؤلاء وتارة مع أولئك، وحيناً وسطاً بينهما.

(٣) الفروق بين المذهبين البصري والكوفي

بعد الاحتياط المتقدم نحصر الكلام على المذهبين في ناحيتين اثنتين إليهما مرد الأمر كله، وهما السماع والقياس.

أمر السماع

تقع البصرة على سيف البادية، وأكثر عربها من قيس وتميم، وقد عرفت شأنهما في الاحتجاج، وتحف بها قبائل عربية سليمة السليقة لم تفسد لغتها بمخالطة الأعاجم، فكانت هذه القبائل ترد سوق البصرة المشهورة (المربد)، وأنت تعلم أن المربد كانت عكاظ الإسلام، ففيها تناشد وتفاخر كما فيها تجارة وبيع[٣]، وذلك لـه أثره في فصاحة أهل البصرة وسلامة لغتهم. ثم كانت هناك رحلات متبادلة، فعلماء البصرة دائمو الترحال إلى البادية والجزيرة يتلقون عن أعرابها، والأعراب دائمو الورود إلى البصرة لشؤون معايشهم، فقد ضرب في بوادي الجزيرة الأصمعي، وأبو عبيدة، ويونس، وأبو زيد، والخليل وغيرهم، ثم كانوا يتحرون في الأخذ: أما العربي فيتحرون فيه سلامة لغته وسليقته[١] وأما الراوي فالصدق والضبط، ثم كانوا لا يعتدون بالشاهد إذا لم يعرف قائله أو لم يروه عربي يوثق بلغته[٢]، ومن هنا عجت بلدهم بفصحاء الأعراب المعروفين في كتب الأدب الذي كانوا من مفاخر البصرة التي يعتدها البصريون.

أما الكوفة فهي أدخل في العراق وأقرب إلى الاختلاط بالأعاجم، ولغة أعرابها ليست لها سلامة لغة أعراب البصرة، فأكثرهم يمن وبها قليل من قبائل أخرى، واليمن – كما رأيت في الكلام على الاحتجاج – لا يحتج بلغتها لتغيرها بالاختلاط بالفرس والأحباش، ثم بين الكوفة وجزيرة العرب صحراء السماوة الشاسعة فلذا لم تكن رحلات علمائها إلى الجزيرة كرحلات علماء البصرة، والكسائي الذي ارتحل لم يرتحل إلا لما تتلمذ على الخليل وسأله، فأرشده إلى الرحلة، وقد مر بك أن أبا عمرو ابن العلاء جاور البدو أربعين سنة، ولم يقم الكسائي بالبدو غير أربعين يوماً[١]! بل نقلوا أن الكسائي ((حمل إلى الأخفش البصري خمسين ديناراً وقرأ عليه كتاب سيبويه سراً))[٢].

نعم كان للكوفة سوق أرادوا بها أن تحاكي مربد البصرة وهي (سوق كناسة)، لكن لم يكن لها ذلك الشأن، وهي إلى أن تكون داعية إفساد اللغة أقرب منها إلى أن تكون عاملاً في صيانتها، لأن الأعراب الذين يؤمونها غير سليمي السلائق.

كل هذه العوامل صرفت الكوفيين إلى رواية الشعر، فذلك هو الميسور لهم، وزعموا أن سبب علمهم بالشعر وسبقهم فيه أهل البصرة: أن المختار ابن أبي عبيد

الأول هي بمعنى حقاً، وقال الثاني: هي بمعنى (ألا) الاستفتاحية.

(3) انظر بسط ذلك في كتابنا (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام).

(1) استضعف أبو عمرو ابن العلاء فصاحة أبي خيرة الأعرابي لما سأله: ((كيف تقول: استأصل الله عرقاتهم!)) ففتح أبو خيرة التاء، فقال لـه أبو عمرو: ((هيهات أبا خيرة، لان جلدك)). – الخصائص ١٣/٢.

(2) في كتابه سيبويه (١٠٥٠) شاهداً خمسون منها لم يعرف قائلوها، فاعتذروا بأن سيبويه وثق برواتها. ومع هذا كان بين هذه الخمسين ما وضع وضعاً. وهو نزر يسير لا يعتد به.

(1) مجلس العلماء للزجاجي ص ١٧١ طبعة حكومة الكويت.

(2) انظر مثلاً مراتب النحويين ص ٧٤

لما خرج بالكوفة قيل لـه: ((إن تحت القصر الأبيض الذي كان للنعمان كنزاً))، فاحتفر فوجد الطنوج التي كان النعمان أمر أن تنسخ فيها أشعار العرب، فأخرجها. قالوا: فمن ثم كان أهل الكوفة أعلم بالشعر، هذه الراوية حماد الرواية الكوفي[٣].

هذا حال من ينقلون عنه من حيث السليقة وسلامة اللغة، وأما الجهة الثانية وهي صدق الراوي وضبطه فلم يعنوا بها، لذا كثر الموضوع المصنوع في أكثر رواياتهم، قال أبو الطيب اللغوي: ((للشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله، وذلك بين في دواوينهم))[١] وأبعد من ذلك في الدلالة قصة خلف الأحمر راويتهم الكبير فقد قال:

((أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا علي به، فكنت أعطيهم المنحول وآخذ الصحيح. ثم مرضت فقلت لهم: ((ويلكم، أنا تائب إلى الله تعالى؛ هذا الشعر لي)). فلم يقبلوا مني وبقي منسوباً إلى العرب لهذا السبب))[٢].

أما راويتهم الأكبر (حماد) فهو الشمس شهرة في كذبه ووضعه، و ((قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً... فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل من الأقدمين ويدخله في شعره، ويحمل عنه ذلك في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلاّ عند عالم ناقد، وأين ذلك))[٣].

ولا تنس استشهاده باللحن أيضاً حتى امتنع الكميت الشاعر عن إملاء شعره عليه، وقد طلب ذلك منه، وقال له: ((أنت لحان ولا أكتبك شعري))[٤].

وقد عجب يونس ((كيف يأخذ الناس عن حماد وهو يلحن ويكسر الشعر ويكذب ويصحف))[١]، ولا تنسى أنه ديلمي من السبي.

وحتى كانوا إذا بالغوا في الثناء على علم كوفي شبهوا روايته برواية أهل البصرة، فقالوا في ترجمة ابن الأعرابي تلميذ المفضل الضبي: ((ولم يكن أحد من الكوفيين أشبه رواية برواية البصريين منه))[٢].

كان من الطبيعي إذن أن يطرح الثقات روايات أهل الكوفة، وقد ملأها حماد وخلف وغيرهما بالمصنوع، وصار ذلك مما يميز مدرسة الكوفة من مدرسة البصرة، وعرف ذلك الخاص والعام، حتى أتى من ألف في طبقات النحويين فسجل الظاهرة الآتية:

((لا يعلم أحد من علماء البصريين بالنحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة إلاّ أبا زيد الأنصاري البصري، فقد روى عن المفضل الضبي الكوفي.

أما أهل الكوفة فيروون عن أهل البصرة إذ كانوا أساتذتهم، حتى الكسائي الذي قرأ على الخليل ويونس وعيسى بن عمر، ورأى تحريهم فيما ينقلون وفيمن

---

(3) انظر الخصائص ٣٨٧/١ الطنوج: الكراريس. والخبر كله أسطورة من الصعب تصديقها، ولعله وضع كما توضع أشباهه من الأخبار النافخة في العصبية للبلدان.

(1) عن مراتب النحويين ص ٧٤

(2) وفيات الأعيان ٣٩٣/١.

(3) كلمة المفضل الضبي – إرشاد الأريب ٢٦٥/١٠. وعلى أن المفضل الضبي هذا ((أعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة)) بتعبير ابن سلام (طبقات الشعراء ص ٢١) فقد وقع هو نفسه فيما خاف منه، فذكر ابن سلام في كلامه على عدي ابن زيد أنه ((حمل عليه شيء كثير، وتخليصه شديد واضطرب فيه خلف وخلط فيه المفضل فأكثر)) ص ١١٧.

(4) الموشح للمرزباني ص ١٩٥.

(1) مراتب النحويين ص ٧٣ وبغية الوعاة ص ٤٢.

(2) نزهة الألباء لابن الأنباري ص ١٧٥.

يشافهون؛ زايل التحري حين انتقل إلى بغداد، وكان أمره كما قال أبو زيد الأنصاري: ((قدم علينا الكسائي البصرة فلقي عيسى والخليل وغيرهما، وأخذ منهم نحواً كثيراً، ثم صار إلى بغداد فلقي أعراب الحطمية فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله))[١].

كل ما تقدم مشهور متعارف عند أهل العلم قديماً، حتى إن ابن سلام لما نقل قوله المفضل الضبي: ((للأسود ابن يعفر ثلاثون ومئة قصيدة)) عقب عليه بقوله: ((ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريباً منه، وقد علمت أن أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروي ويتجوزون في ذلك بأكثر مما تجوزنا))[٢].

ولا تظنن هذا الطابع طبع مدرسة الكوفة في علوم العربية فحسب، بل هو سمتهم في كل ما يعتمد السماع، وإليك حكم الخطيب البغدادي على المدرسة الكوفية ومدرسة البصرة في الحديث قال: ((ولأهل البصرة من السنن الثابتة بالأسانيد الواضحة ما ليس لغيرهم مع إكثارهم. والكوفيون مثلهم في الكثرة غير أن رواياتهم كثيرة الدغل قليلة السلام من العلل))[٣].

هذا فرق بين المدرستين في أمر السماع وصحته والتحري فيه.

أمر القياس

رسم البصريون خطتهم في النحو بعد أن جعلوا نصب أعينهم الهدف الذي إليه يرمون، وهو عصمة اللسان من الخطأ، وتيسير العربية على من يتعلمها من الأعاجم. ولذا تحروا ما نقلوا عن العرب، ثم استقروا أحواله، فوضعوا قواعدهم على الأعم الأغلب من هذه الأحوال، فإن تناثر هنا وهناك نصوص قليلة لا تشملها قواعدهم سلكوا بها – بعد التحري من صحة نقلها عن العرب المحتج بكلامهم – إحدى طريقتين: إما أن يتأولوها حتى تنطبق عليها القاعدة، وإما أن يهملوا أمرها لقلتها فيحفظوها ولا يقيسوا عليها، جاعليها من الصنف الذي سموه مطرداً في السماع شاذاً في القياس، وذلك مثل (استحوذ واستصوب) والقياس فيها الاعلال مثل (استقال، استجاد، استطال.. إلخ) فقالوا: تحفظ الكلمات النادرة التي وردت عن العرب في هذا الباب ولا يقاس عليها، بل منهم من ذهب إلى أن اتخاذ القياس فيها (استحاذ، استصاب) غير خطأ.

وهم الذين أمعنوا في أحوال الكلام العربي، واستنبطوا علله، وحكموا فيها المنطق والعقل حتى جاءت قواعدهم في القياس والنحو الذي بني عليها متماسكة متناسقة في الجملة، ولا بد في كل تنسيق من تشذيب يخرج بض النتوء من الهيكل المشذب. ولم يكن إلى الصواب من عاب عليهم من المحدثين أنهم بتعميم هذه القواعد قد أهدروا شيئاً من اللغة، فهم حين يختارون بين اللغتين أشيعهما وأقربهما إلى القياس، قد قاموا بخير ما يمكن أن يقوم به من يريد حفظ اللغة، ومع أن الكوفيين جمعوا ما هبّ ودبّ ولم يفرطوا شيئاً مما وصل إليهم، لم يدعوا ولم يدع لهم أحد أنهم لموا اللغة من أطرافها وأحصوها، وأنا نجد عندهم كل لغات العرب

---

(1) إرشاد الأريب ١٨٢/١٣. الحطمية قرية على فرسخ من شرقي بغداد. وذكر الأصمعي ((أن الكسائي يأخذ اللغة عن أعراب الحطمية ينزلون بقطربل (قرية بين بغداد وعكبرا) وغيرها من قرى سواد بغداد، فلما ناظر سيبويه استشهد بكلامهم واحتج بهم وبلغتهم على سيبويه)) ١٨١/١٣.

(2) طبقات الشعراء ص ١٢٣.

(3) نقله المرحوم جمال الدين القاسمي في كتابه قواعد التحديث ص ٥٨.

بلهجات قبائلها؛ بل نحن أحرى أن نجد عن البصريين المنظمين المنسقين ما لا نجده عند غيرهم، فالنظام يحفظ في نسق ما لا يستطيع غيره أن يحفظه.

أما الكوفيون فلم يكن لهم أصول يبنون عليها غير ما أخذوه عن أساتذتهم البصريين ولم يحسنوه، ثم جعلوا من عدم المنهج في سماعهم منهجاً خاصاً لهم، فسمعوا الشاذ واللحن والخطأ، وأخذوا عمن فسدت لغته من الأعراب وأهل الحضر؛ فلما اقتضتهم المنافسة أن يكون لهم قياس كما لأولئك بنوه على ما عندهم مما يتنزه عن روايته البصري، ثم جعلوا كل شاذ ونادر قاعدة لنفسه، فانتشرت عليهم قواعدهم ولم يعد لها ما يمسكها من نظام أو منطق، وضاعت الغاية من وضع النحو، فلم يعد – في أيديهم – أداة تيسير لتعلم العربية، بعد أن أصبحت له قواعد بعدد ما جمعوا من شواهد، وهذا شيخهم وكبيرهم الكسائي: ((كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز من الخطأ واللحن وشعر غير أهل الفصاحة، والضرورات، فيجعل ذلك أصلاً ويقيس عليه حتى أفسد النحو))[1] وحتى ضاق به وبقياسه وبسماعه اليزيدي فقال:

كنا نقيس النحو فيما مضى	على لسان العرب الأول
فجاءنا قوم يقيسونه	على لغى أشياخ قطر بل
فكلهم يعمل في نقيض ما	به يصاب الحق لا يأتلي
إن الكسائي وأشياعه	يرقون بالنحو إلى أسفل[1]

وغلب هذا الانحراف على الكوفيين حتى قال الأندلسي شارح المفصل: ((الكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوبوا عليه))[2].

أما قياسهم نفسه ومقدار جودته فقد مر بك في المناظرات نمط منه، وعرفت وهيه حين يعللون بالتوهم مرة في رسم (والضحى)، وبتسليط فعل مقدر على أحد المتعاطفين دون الثاني في قضية (فاذا هو إياها).

* * *

اتجه بعض الباحثين المحدثين إلى عد المذهب الكوفي مذهب سماع على حين عدوا المذهب البصري مذهب قياس، فذهب الأستاذ أحمد أمين إلى أنهم ((يحترمون كل ما جاء عن العرب ويجيزون للناس أن يستعملوا استعمالهم))[3]، وبالغ المرحوم طه الراوي فقال: ((أما مذهب الكوفيين فلواؤه بيد السماع، لا يخفر له ذمة، ولا ينقض له عهداً، ويهون على الكوفي نقض أصل من أصوله أو نسف قاعدة من قواعده، ولا يهون عليه عليه اطراح المسموع على الأكثر[1].

وأود هنا – بعد ما مر بك – أن أحرر هذا الأمر فأفرق بين القياس ذي الأصول المقررة والقياس المشوش الذي لا ضبط لـه. فالصحيح أن الفريقين كانا يقيسان،

---

(1) إرشاد الأريب ١٨٣/١٣ ويقول ابن درستويه. ((كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً ويقيس عليه فأفسد النحو بذلك.)) – بغية الوعاة ص٢٣٦.

(1) أخبار النحويين البصريين ص٤٤ وبغية الوعاة ص ٣٣٦ وإرشاد الأريب ٣١/٢٠.

(2) الاقتراح ١٠٠.

(3) ضحى الإسلام ٢٩٥/٢.

(1) نظرة في النحو: مجلة المجمع العلمي العربي ٣١٩/١٤

وربما كان الكوفيون أكثر قياساً إذا راعينا (الكم) فهم يقيسون على القليل والكثير والنادر والشاذ، ولم نعلم لهم مناهج محررة في القياس. أما البصريون فهم أقيس إذا راعينا (الكيف) – والحق مراعاته – فهم لا يقيسون إلاّ على الأعم الأغلب، ولهم في القياس أصول عامة يراعونها. والزمن حكم لعلمهم بالبقاء إذ كان الأنسب والأضبط. فكان نحو الناس حتى هذا اليوم بصرياً في أغلبه.

تصرفت الحياة في هذا الأمر بما لا يشعر به البصريون ولا الكوفيون، إذ إن لها اختيارها الخاص الملائم: تقبل ما يروقها وتحييه غير آبهة لما يقول هؤلاء ولا ما يقول أولئك، وإنما السليقة اللغوية الخفية في نفوس المتكلمين هي التي احتفظت بما كان أقرب لروح العربية الأولى: فمات بل لم يولد ما جانف هذه السليقة، فما أحد قال ولا يقول اليوم (الرجال قام) وإن قال المذهب الكوفي بتقديم الفاعل على الفعل.

أما السماع فهل كان الكوفيون (يحترمونه) حقاً كما قال الأستاذ أحمد أمين؟ (وهل كان لواؤه بيدهم لا يخفرون له ذمة) كما قال المرحوم الأستاذ طه الراوي؟ لعلك بعد ما سبق لك موقن معي أن السماعيين هم البصريون لا الكوفيون؛ فمن احترام السماع صيانته وحفظه من كل موضوع، ومن احترامه تحري حال المسموع منه. فلا يدس فيه كلام الذين فسدت لغتهم من أعراب الحطمية وأشياخ قطربل، ومن احترامه ألا نساوي بين القليل النادر والأكثر الشائع فنغمط حق هذا الأخير. وإن حشرنا فيه الضعيف والشاذ والخطأ مما يقع فيه أعراب السواد. والشعر المصنوع مما دسه حماد وخلف الكوفيان؛ خفر لذمته ونقض لعهده[1].

الحق أن البصريين عنوا بالسماع فحرروه وضبطوه (واحترموه)، على حين زيفه الكوفيون وبلبلوه، والأمر في القياس على هذه الوتيرة. نظمه وحرر قواعده وأحسن تطبيقه البصريون، على حين هو في يد الكوفيين مشوش غير واضح المعالم ولا منسجم في أجزائه، ولا مطرد. بل تجد فيه ظاهرة غريبة جداً، وهي إطلاقهم – وهم المتقيدون بالسماع – الاشتقاق فيما لم يسمع عن العرب، فقد ذهبوا إلى قياس (مفعل وفعال على نحو مثنى وثلاث من خمسة إلى تسعة على حين لم يسمع عن العرب ذلك إلاّ من واحد إلى أربعة، والبصريون أنفسهم – وهم القياسيون – منعوه (إلا المبرد منهم) لعدم السماع، ولأن يكون ذلك من البصريين أحرى إذ هو بمذهبهم أشبه وعن مذهب الكوفيين أبعد. وهذا يؤكد لك ما ذهبت إليه من أنه مذهب غير منسجم الأجزاء.

أميل إذن إلى أن المذهب الكوفي لا هو مذهب سماع صحيح ولا مذهب قياس منظم. لكن التاريخ يؤيد وجود المذهبين مذهب السماع ومذهب القياس، وهما حقاً وجدا، ولكن في البصرة لا في الكوفة. أما القياس فليست بصريته موقع خلاف، وأما السماع الصحيح فإني أوثر أن أنقل فيه كلام الأستاذ أحمد أمين نفسه في أن هذه المدرسة مدرسة بصرية، قال:

((كانت هاتان النزعتان في البصرة في أيامها الأولى، فهم يقولون: إن ابن أبي إسحاق الحضرمي وتلميذه عيسى ابن عمر كانا أشد ميلاً للقياس، وكان لا يأبهان بالشواذ، ولا يتحرجان من تخطئة العرب؛ وكان أبو عمرو ابن العلاء وتلميذه يونس

(1) كان يونس بن حبيب يقول: ((إن لم يكن بزرج النحوي (الكوفي) أروى الناس فهو أكذب الناس)). كان كذاباً، كثيراً ما يحدث بالشيء عن رجل ثم عن غيره، انظر ترجمته في الفهرست وفي إنباه الرواة.

ابن حبيب البصريان أيضاً على عكسهما: يعظمان قول العرب ويتحرجان من تخطئتهم، فغلبت النزعة الأولى على من أتى بعد من البصريين، وغلبت النزعة الثانية على من أتى بعد من الكوفيين ولا سيما الكسائي الكوفي)).

وهذا حق مع استدراك واحد، هو أن أبا عمرو ويونس يعظمان قول العرب بعد التحري والتثبت من أنه كلام العرب المحتج بهم، ما الكوفيون فلا يتحرون، ولو قال الأستاذ (فغلبت النزعة الثانية مشوهة إلخ..) لطبق المفصل، وجميل ما حكم به بعد ذلك بين المذهبين:

((ونرى في هاتين النزعتين أن البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلاً، وأن طريقتهم أكثر تنظيماً وأقوى سلطاناً على اللغة، وأن الكوفيين أقل حرية وأشد احتراماً لما ورد عن العرب ولو موضوعاً (كذا)، فالبصريون يريدون أن ينشئوا لغة يسودها النظام والمنطق، ويميتوا كل أسباب الفوضى من رواية ضعيفة أو موضوعة أو قول لا يتمشى مع المنطق، والكوفيون يريدون أن يضعوا قواعد للموجود حتى الشاذ، من غير أن يهملوا شيئاً حتى الموضوع))[1].

وبهذا لا يكون من الدقة – في رأيي – إطلاق النزعة السماعية على المذهب الكوفي والنزعة القياسية على المذهب البصري. والدقة التي يؤيدها التاريخ والإمعان فيه وفي أقوال الكوفيين والبصريين ألا يكون مذهب بصري يقابله مذهب كوفي، بل نزعة سماعية يقابلها نزعة قياسية يختلف حظ كل منهما صحة وحالاً ومقداراً بين البلدين، بل بين نحاة كل بلد على حدة. على ذلك الأساس يصح أن نعيد النظر في النحو وتاريخه ورجاله بهذا التصنيف الجديد، بعد أن علمنا أن النزعتين تتمثلان على حقهما بالبصرة لا بالكوفة.

* * *

وبعد فهذه أحكام تقريبية لا مطردة، إذ إن في المذهب الكوفي مسائل جيدات تختار على مثيلاتها في المذهب البصري، كإعمالهم مثلاً اسم المصدر عمل المصدر، فحكمهم في ذلك صحيح واضح تؤيده روح القواعد والمنطق، وشاهداهم عليه صحيحان قويان[2]، وما اتجهوا إليه في إعراب (نعم وبئس)[1] أيسر وأقرب إلى الفطرة اللغوية من مذهب إخوانهم البصريين، وكذهاب بعضهم في قضية

---

(1) ضحى الإسلام ٢٩٦/٢.

هذا وللقاضي الجرجاني في كتابه (الوساطة) الذي ألفه للدفاع عن المتنبي الكوفي والحكم بينه وبين خصومه، حكم يسرني إثباته لـه لما فيه من توضيح الأمر هنا على رغم سوقه مساق الدفاع عن الكوفيين قال:

ولأهل الكوفة رخص لا تكاد توجد لغيرهم من النحويين... غير أنهم لا يبلغون بها مرتبة (الإهمال) للقواعد العامة. انظر الوساطة ص ٤٦٦.

(2) قول القطامي يمدح زفر ابن الحارث الكلابي:

أكفراً بعد ردّ الموت عني وبعد عطائك المئة الرّتاعا

والحديث الشريف: ((من قبلةِ الرجل امرأتَهُ الوضوءُ)).

ففزع البصريون في رد القاعدة إلى أن الحديث مروي بالمعنى، وإلى أن البيت فيه ضرورة. لكن الزمن حكم للكوفيين، فصحت قاعدتهم وسار عليها الناس وقبلها النحاة حتى يومنا هذا. ونحو من هذا: القاعدة التي وضعها البصريون في وجوب إعادة الجار قبل المعطوف على المجرور ولم يلتزم العرب ذلك.

(1) انظرها في كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) ص٦٦.

(أشياء) وأنها جمع لشيء منعت من الصرف لشبه ألفها بألف التأنيث[٢]، ولهم أشباه هذه المسائل.

وبذلك تدرك صواب الظاهرة التي قدمت بها هذا الكلام من أن الحق يصيبه هؤلاء تارة وهؤلاء تارة.

ونختتم هذه الفقرة بمثل صغير من اختلاف بين المدرستين ننتزعه من كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري) نموذجاً لقضايا جاوزت المئة في هذا الكتاب، يبسط في كل منها رأي الكوفيين وحججهم ثم رأي البصريين وحججهم مع ردودهم على حجج الكوفيين غالباً.

٩٢- مسألة سوف

ذهب الكوفيون إلى أن السين التي تدخل على الفعل المستقبل نحو (سأفعل) أصلها (سوف)، وذهب البصريون إلى أنها أصل بنفسها.

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا: إنما قلنا ذلك لأن سوف كثر استعمالها في كلامهم وجريها على ألسنتهم، وهم أبداً يحذفون لكثرة الاستعمال كقولهم: ((لا أدر، ولم أبل، ولم يك، وخذ وكل)) وأشباه ذلك، والأصل:

((لا أدري، ولم أبال، ولم يكن، وأأخذ، وأأكل)) فحذفوا في هذه المواضع وما أشبهها لكثرة الاستعمال فكذلك ها هنا: لما كثر استعمال (سوف) في كلامهم حذفوا منها الواو والفاء تخفيفاً.

والذي يدل على ذلك أن قد صح عن العرب أنهم قالوا في (سوف أفعل): (سو أفعل) فحذفوا الفاء، ومنهم من قال: (سف أفعل) فحذف الواو وإذا جاز أن يحذف الواو تارة والفاء أخرى لكثرة الاستعمال جاز أن يجمع بينهما في الحذف مع تطرق الحذف إليهما في اللغتين لكثرة الاستعمال. والذي يدل على ذلك أن السين تدل على ما تدل على سوف من الاستقبال، فلما شابهتها في اللفظ والمعنى دل على أنها مأخوذة منها وفرع عليها.

وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا: إنما قلنا ذلك لأن الأصل في كل حرف يدل على معنى ألا يدخله الحذف وأن يكون أصلاً في نفسه، والسين حرف يدل على معنى، فينبغي أن يكون أصلاً في نفسه لا مأخوذاً من غيره.

وأما الجواب عن كلمات الكوفيين: أما قولهم ((إن (سوف) لما كثر استعمالها في كلامهم حذفوا الواو والفاء لكثرة الاستعمال قلنا: هذا فاسد؛ فإن الحذف لكثرة الاستعمال ليس بقياس ليجعل أصلاً لمحل الخلاف، على أن الحذف ولو وجد كثيراً في غير الحرف من الاسم والفعل فقلما يوجد في الحرف، وإن وجد الحذف في الحرف في بعض المواضع فهو على خلاف القياس فلا يجعل أصلاً يقاس عليه.

وأما ما رووه عن العرب من قولهم في (سوف أفعل) : (سو أفعل) و (سف أفعل) فالجواب عنه من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: إن هذه رواية تفرد بها بعض الكوفيين؛ فلا يكون فيها حجة.

والوجه الثاني: إن صحت الرواية عن العرب فهو من الشاذ الذي لا يعبأ به لقلته.

---

(2) المصدر السابق ص ٤٨٢ فقد ركب البصريون في هذه المسألة متن عمياء واضطروا إلى الاستغاثة بأوهى العلل حتى بانحراف اللسان، وكان من حججهم قول بعض العرب (ما أيطبه) بدل (ما أطيبه)!

والثالث: أن حذف الفاء والواو على خلاف القياس؛ فلا ينبغي أن يجمع بينهما في الحذف، لأن ذلك يؤدي إلى ما لا نظير له في كلامهم؛ فإنه ليس في كلامهم حرف حذف جميع حروفه طلباً للخفة على خلاف القياس حتى لم يبق منه إلاّ حرف واحد، والمصير إلى ما لا نظير له في كلامهم مردود.

وأما قولهم: ((إن السين تدل على الاستقبال كما أن (سوف) تدل على الاستقبال)) قلنا: هذا باطل؛ لأنه لو كان الأمر كما زعمتم لكان ينبغي أن يستويا في الدلالة على الاستقبال على حد واحد، ولا شك أن (سوف) أشد تراخياً في الاستقبال من السين، فلما اختلفا في الدلالة دل على أن كل واحد منهما حرف مستقل بنفسه غير مأخوذ من صاحبه والله أعلم))[1].

جرى بعض الباحثين قديماً وحديثاً على رد الخلاف النحوي بين هذين المصريين العربيين إلى السياسة، وهو رأي سطحي لا يثبت عند التدقيق: فأهل النظر في كل فن تتباين أنظارهم كثيراً دون أن يكون للسياسة أو غيرها في ذلك أثر، وإنما هو الاجتهاد المحض، وهؤلاء أئمة البصريين يختلفون – فيما بينهم – اتجاهاً واجتهاداً في مسائل كثيرة. نعم ربما كان للسياسة أثر ما في ميل الأمراء العباسيين إلى الكوفيين، لكن هذا شيء وتوجيه الفن إلى اتجاه خاص شيء آخر.

أما هذه الأحداث التي كانت تكون بين كوفي وبصري في قصور الحكام فنوع من الدفاع عن القوت أولاً، وميل إلى العصبية البلدية[1] آخراً. ولا تظن أن ما مر بك من مشاحنات بينهم كان يصرف بعضهم عن الانتفاع بعلم بعض، وحسبك أن تعلم أن الفراء مات ((وتحت رأسه كتاب سيبويه)) وأن الكسائي وهب للأخفش خمسين ديناراً اقراءته كتاب سيبويه عليه، وأنه ((سلخ كتابه في معاني القرآن من كتاب الأخفش))[2]. وأن الجاحظ لما عدد مفاخر البصرة على الكوفة قال: ((وهؤلاء يأتونكم بفلان وفلان وبسيبويه الذي اعتمدتم على كتبه وجحدتم فضله)). ولما اشترى الجاحظ كتاب سيبويه من ميراث الفراء رآه أثمن ما يهدى إلى محمد ابن عبد الملك الزيات، فلما دخل عليه وقد افتصد سأله: ((ما أهديت لي يا أبا عثمان))؟ قال: ((أطرف شيء: كتاب سيبويه بخط الكسائي وعرض الفراء))!. إلى غير ذلك من الأخبار التي إن صدقتها فدلالتها على العصبية البلدية ظاهرة، وإن ذهبت إلى وضعها أو التزيد فيها فالدلالة أظهر.

لم يختلف نحاة المصرين تبعاً لاختلاف سياسة بلديهما، فليس للسياسة تأثير مباشر في ذلك، وإنما كان التكتل استجابة للعصبية ليس غير:

أنشئت البصرة والكوفة على عهد عمر ابن الخطاب؛ وانقضت سنون من عهد عثمان والمصران كالبلد الواحد ولبعض القبائل جماعات في كل منهما، فلما كان الشغب أيام عثمان أسهم العراقيون فيه؛ وآلت الأمور إلى قتل الخليفة والفتن

---

(1) الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري ص ٣٧٩ (مطبعة الاستقامة في القاهرة).

(1) لما نعى الأحمر إلى الفراء وكلاهما كوفي (وكانت بينهما وحشة)، ذكره بخير وأثنى عليه، فقال أهل زمانه: ((لم يذكره لمحبة لـه، وإنما ذكره ليكاثر أهل البصرة بأهل الكوفة)) - إنباه الرواة ٣١٧/٢.

(2) بغية الوعاة ص ٣٥٨ وانظر إنباه الرواة ٣٧/٢ حيث قول الأخفش: ((سألني الكسائي أن أؤلف لـه كتاباً في معاني القرآن، فألفت كتابي في المعاني فجعله إماماً، وعمل عليه كتاباً في المعاني، وعمل الفراء كتابه في المعاني عليهما)) هذا وذكروا أن (معاني الكسائي) لو قرئ عشر مرات لا حتاج من يقرؤه أن يقرأه – إنباه الرواة ٢٦٥/٢.

المتلاحقة بعد أن انضم البصريون في وقعة الجمل إلى عائشة وطلحة والزبير، وانضم الكوفيون إلى علي، وكانت الملحمة بينهما، واستحرَّ القتل، وكان لكل فريق مجزرة هائلة في الفريق الآخر.

فمن ثم العداوة والتخاصم والتنافس بين البلدين. فلما انقضى عهد القلاقل خلف في أذهان الفريقين قصصاً وأدباً وشعراً ووقائع تذكر بالفخر تارة وبالوجيعة تارة أخرى[١].

فهذا ما ولد العصبية والتنافس بين وفود الفريقين ورجالاتهم في الأسمار ومجالس الأمراء.

ولئن كانت أحداث سياسة خاصة هي المفرقة قديماً، إنها تطورت مع الزمن وتحول اتجاهها، حتى تبلورت في عصبية للبلد[٢] وثبتت عليه كما نجد أنماطاً من ذلك في مثل كتاب البلدان للهمداني، بل إن بعضهم كان يؤلف في مفاخر بلده كما فعل الهيثم ابن عدي الكوفي (٢٠٩) فألف كتابه (فخر أهل الكوفة على أهل البصرة)[٣]. المدافعة عن أسباب العيش أولاً وقبل كل شيء ثم العصبية للبلد لا للسياسة (عاملاً ثانوياً) هما اللذان لوّنا الخلاف النحوي ولم يوجداه، لوَّناه بشيء من العنف، رأيت أنماطاً منه في المناظرات التي مرت بك؛ وفي مثل قول اليزيدي يمدح نحويي البصرة ويهجو الكسائي وأصحابه:

يا طالب النحو ألا فابكه	بعد أبي عمرو وحماد
وابن أبي إسحاق في علمه	والزين في المشهد والنادي
عيسى وأشباه لعيسى، وهل	يأتي لهم دهر بأنداد
هيهات، إلا قائلاً عنهم	أرسوا لـه الأصل بأوتاد
فهو لمنهاجهم سالك	لفضلهم ليس بجحاد
ويونس النحوي لا تنسه	ولا (خليلاً) حية الوادي
وقل لمن يطلب علماً: ألا	ناد بأعلى شرف ناد:
يا ضيعة النحو به مغرب	عنقاء أودت ذات إصعاد
أفسده قوم وأزروا به	من بين أغتام وأوغاد
ذوي مراء وذوي لكنة	لئام آباء وأجداد
لهم قياس أحدثوه همُ	قياسُ سوءٍ غير منقاد

(1) انظر أخبارها في معجم البلدان لياقوت، وفي كتاب البلدان للهمداني ففيهما طرائف، وانظر على سبيل التمثيل أبيات أعشى همدان ينتصر للكوفة على البصرة:

اكسع البصري إن لا قيته	إنما يكسع من قل وذل
واجعل الكوفي في الخيل ولا	تجعل البصري إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا	ما صنعنا بكم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عثنونه	وفتى أبيض وضاح رفل
جاءنا يخطر في سابغة	فذبحناه ضحيً ذبح الجمل
وعفونا فنسيتم عفونا	وكفرتم نعمة الله الأجل

كسعه: ضربه بصدر قدمه على مؤخره – الرفل: المتبختر، الكثير اللحم – السابغة: الدرع الطويلة. وانظر في ذلك كتابنا (عائشة والسياسة).

(2) قال الجاحظ في كتاب (البلدان) وقد ذكر فضل البصرة ورجالها: وفينا اليوم ثلاثة رجال لغويون ليس في الأرض مثلهم، ولا يدرك مثلهم – يعني في الاعتلال والاحتجاج والتقريب – أبو عثمان المازني، والثاني العباس ابن الفرج الرياشي، والثالث أبو إسحاق إبراهيم ابن عبد الرحمن الزيادي. وهؤلاء لا يصاب مثلهم في شيء من الأمصار.! وكتب كتابه هذا في شهر ربيع الأول سنة ٢٤٨ هـ - من إنباه الرواة ٢٤٨/١.

(3) إرشاد الأريب ١٩/ ٣١٠.

فهمْ من النحو – ولو عمروا | أعمار عاد – في (أبي جاد)
أما الكسائي فذاك امرؤ | في النحو حارٍ غير مرتاد
وهو لمن يأتيه جهلاً به | مثل سراب البيد للصادي[1]

وهجا المبرد البصري ثعلباً الكوفي بقوله:

أقسم بالمبتسم العذب | ومشتكى الصب إلى الصب
لو أخذ النحو عن الرب | ما زاده إلا عمى القلب

فتمثل ثعلب:

يشتمني عبد بني مسمع | فصُنْت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقاري لـه | من ذا يعض الكلب إذا عضا[1]

وأراد ثعلب هذا أن يقرأ على المبرد البصري، فأنكر عليه أصحابه الكوفيون وقالوا: مثلك لا يصلح أن يمضي إلى بصري فيقال غداً: إنه تلميذه[2]، فاستجاب لهم عصبية وحرم نفسه الخير.

لكن ختنه (زوج ابنته) أحمد ابن جعفر الدينوري لم يبال ذلك، فكان يخرج من منزل ثعلب وهو جالس على باب داره، فيتخطاه ويتخطى أصحابه، ويتوجه إلى المبرد ومعه محبرته ودفتره ليقرأ عليه كتاب (سيبويه)، وكان ثعلب يعاتبه في ذلك ويقول: ((إذا رآك الناس تمضي إلى هذا الرجل وتقرأ عليه، يقولون ماذا؟)) فلم يكن يلتفت إلى قوله[3].

وما بلغت العصبية والنضال عن أسباب الرزق بين الفريقين مدى سافراً هذا السفور الذي تراه في الخبر الآتي:

((لما أصاب الكسائي الوضح (البرص) كره الرشيد ملازمته أولاده فأمره أن يختار لهم من ينوب عنه ممن يرضاه، وقال:

((إنك كبرت، ولسنا نقطع راتبك)) فدافعهم خوفاً أن يأتيهم برجل يغلب على موضعه، إلى أن ضيّق الأمر عليه وشدَّد، وقيل له: ((إن لم تأت برجل من أصحابك اخترنا لهم من يصلح))، وكان بلغه أن سيبويه يريد الشخوص إلى بغداد والأخفش، فقلق لذلك، وعزم على أن يدخل عليهم من لا يخشى غائلته، فقال لعلي الأحمر: ((هل فيك خير؟)) قال: ((نعم)) قال: ((قد عزمت على أن أستخلفك على أولاد الرشيد)) فقال الأحمر: ((لعلي لا أفي بما يحتاجون إليه!)) فقال الكسائي: ((إنما

---

(1) أخبار النحويين البصريين ص٤ – رجل غتم من قوم أغتام: لا يفصح. الحار: الحائر. (أبي جاد: أبجد، هوز، إلخ) يريد أنهم لا يتجاوزون أول العلم لضعف استعدادهم، كما أن الصبي في الكتاب أول ما يتعلمه حروف (أبجد هوز).

(1) ترجمة ثعلب في بغية الوعاة ص ١٧٣.

(2) إرشاد الأريب ١١٥/٥، ثم ذكر ياقوت أن ابن الأنباري أورد هذه القصة ليرفع من ثعلب والكوفيين عصبية، فوضع منهم.

(3) انظر ترجمته في إنباه الرواة للقفطي (٣٣/١) وبغية الوعاة للسيوطي.

يحتاجون كل يوم إلى مسألتين في النحو، وثنتين من معاني الشعر وأحرف من اللغة، وأنا ألقنك (ذلك) كل يوم قبل أن تأتيهم فتحفظه وتعلمهم)) وكذلك كان[1].

هذا ومن الخير ألا نغفل هنا خبراً يردُّ الأمور إلى نصابها فيما عرف عن بعض الكوفيين من أعمال علمية، فقد قال سعيد ابن مسعدة الأخفش: ((سألني الكسائي أن أؤلف له كتاباً في (معاني القرآن) فألفت كتابي في المعاني، فجعله إماماً لنفسه، وعمل عليه كتاباً في المعاني، وعمل الفراء كتابه في المعاني عليهما!))[2]، وقد مر بك الخبر آنفاً. وتحفظ كتب الأخبار حادثاً صريحاً في استغلال نفوذ الحكم لنصرة الكوفة على البصرة يرويه أبو حاتم، قال:

((قدم علينا (بالبصرة) محمد ابن مسلم الكوفي عاملاً على الخراج والصدقات، فصرت إليه مسلماً فقال لي: ((من علماؤكم بالبصرة؟)) فقلت:

((المازني من أعلمهم بالنحو، والرياشي من أعلمهم باللغة، وهلال الرأي من أفقههم، وابن الشاذكوني من أعلمهم بالحديث، وابن الكلبي من أعلمهم بالشروط، وأنا أنسب إلى علم القرآن)). فقال لكاتبه: ((اجمعهم في غد)).

فلما اجتمعنا قال: ((أيكم المازني؟)) فقال أبو عثمان: ((ها أنذاك أصلحك الله)) فقال: "ما تقول في كفارة الظهار: أيجوز فيه عتق غلام أعور؟)) فقال له: ((أصلحك الله، وما علمي بهذا؟ هذا يحسنه هلال الرأي)). فالتفت إلى هلال الرأي فقال: ((أرأيت قول الله عز وجل: {يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ} [المائدة: ١٠٥/٥] بم انتصب هذا الحرف؟)) فقال: ((أعزك الله، أنا لا أحسن هذا، إنما يحسنه الرياشي)).

فقال: ((يا رياشي كم حديثاً روى ابن عون عن الحسن؟)) فقال: ((أصلحك الله، هذا يحسنه ابن الشاذكوني)).

فالتفت إلى ابن الشاذكوني فقال: ((كيف تكتب كتاباً بين رجل وامرأة أرادت مخالعته على إبرائها من صداقها؟)) فقال: ((أعزك الله، هذا يحسنه ابن الكلبي)).

فقال لابن الكلبي: ((من قرأ: ((ألا إنهم تَثْنَوني صدورهم[1]؟)) فقال: ((أعزك الله هذا يحسنه أبو حاتم)).

فقال لأبي حاتم: ((كيف تكتب كتباً إلى أمير المؤمنين تصف فيه خصاصة أهل البصرة وما جرى عليهم العامَ في ثمارهم؟)) فقلت له: ((أعزك الله، لست صاحب بلاغة وكتب، إنما أنسب إلى علم القرآن)).

فقال: ((انظر إليهم قد أفنى كل واحد منهم ستين سنة في فن واحد من العلم حتى لو سئل عن غيره لسوى في الجهال؛ لكن عالمنا بالكوفة لو سئل عن هذا كله أصاب)) يعني الكسائي[2]. اهـ.

---

(1) بغية الوعاة ص ٣٣٤ عن إرشاد الأريب. وقد اعترض أصحاب الرشيد وقالوا: ((إنما اخترت رجلاً من أهل النوبة (الجند) وليس متقدماً في العلم))، فدافعهم وشهد له.

ولم يزل الأحمر يتعلم من الكسائي ويعلم أبناء الرشيد حتى صار مع طول الأيام نحوياً، وقد أتحفنا هذا الخبر بنموذج من برامج التعليم الخاص يومئذ.

(2) طبقات النحويين واللغويين ص٧١.

(1) وهذه هي قراءة ابن عباس وعلي ابن الحسين وولديه زيد ومحمد، ومجاهد وابن يعمر، ونصر ابن عاصم، والجحدري، وابن أبي إسحاق وغيرهم. والكلمة مضارع اثنونى على وزن (افعوعل)، وقراءة الأمصار اليوم: (يثنون).

(2) المصون في الأدب العسكري ١٣٢.

أثرت العصبية ما رأيت فيما كان بينهم، أما النحو نفسه فلم يتأثر بشيء من ذلك، وإنما حمل طابع العلماء أنفسهم في التفكير والتنسيق سعةً وضيقاً، ونظاماً وبلبلة.

ولما تقدم الزمن، واستوى عند الحكام نحويو البصرة ونحويو الكوفة، غاب السبب الأول، وبقيت العصبية للبلد تخالط بعض النفوس، حتى صرت ترى العالم الذي ينبغي أن يتنزه عن العصبية في العلم – ولو بعد ذهاب أسبابها المادية على الأقل – تداعبه هذه النزعة، فيجمع بين شيئين متنافرين لا لسبب إلاّ أنهما نبتا في بلد يعزه. وأنا أقدم لك نموذجاً لهذه الظاهرة:

الخليل ابن أحمد السجزي القاضي المتوفي سنة (٣٧٨هـ)، فقد كان حنفياً في الفقه وكوفياً في النحو، وفاخر بذلك يقول:

سأجعل لي النعمان في الفقه قدوة	وسفيان في نقل الأحاديث سيدا ومن بعده الفراء ما عشت
وأجعل في النحو الكسائي قدوة	سرمدا
وإن عدت للحج المبارك مرة	جعلت لنفسي كوفة الخير مشهدا[1]

ومن كان حنفياً فأشبه مذاهب النحو بالمذهب الحنفي مذهب البصرة لإحكام القياس فيه، ولكنه الميل النفسي الشديد إلى الكوفة، والولوع بكل ما أنتجت حدوَا القاضي على أن يكون كوفياً في النحو والفقه والحديث مهما تنافرت أصول هذه الفنون في الكوفة.

وقد كان لهذه العصبية شيء من (رد الفعل) عند العلماء جعلهم يشكون في كل ما ينقل من علم كوفي: هذا أبو حاتم السجستاني يسمع تغالي الكوفيين في حمزة الزيات – أحد قراء الكوفة – فيسأل عنه أبا زيد والأصمعي ويعقوب الحضرمي وغيرهم من العلماء، فيجمعون على أنه لم يكن شيئاً ((ولم يكن يعرف كلام العرب ولا النحو ولا كان يدعي ذلك..)) قال أبو حاتم: ((وإنما أهل الكوفة يكابرون فيه ويباهتون، فقد صيّره الجهال من الناس شيئاً عظيماً بالمكابرة والبهت))، وقول ذوي اللحى العظام منهم: ((كانت الجن تقرأ على حمزة)).. وكيف يكون رئيساً وهو لا يعرف الساكن من المتحرك، ولا مواضع الوقف والاستئناف، ولا مواضع القطع والوصل والهمز؟ وإنما يحسن هذا أهل البصرة، لأنهم علماء بالعربية، قراء رؤساء))[1].

وكان يكفي أن يشوب علمَ العالم أو تأليفَ الكتاب أخذٌ عن الكوفيين حتى ينبز بذلك عند النقاد[2].

والظاهر أنه كان بين أهل البلدين فيما بعد، تنكيت وإرسال قصص وأخبار يحمل فيها أهل البلد على أهل البلد الآخر، وراجت هذه النكات – على نحو ما نرى اليوم بين بلدتين متجاورتين كحمص وحماة في الشام – وزاد هذا الأمر حتى استحق أن تؤلف فيه المؤلفات فهذا ابن حبان البستي (٣٥٤هـ) على جلالة قدره يؤلف كتاباً في

---

(1) تهذيب تاريخ ابن عساكر (مطبعة روضة الشام) ١٧٣/٥.

(1) مراتب النحويين ص٢٧

(2) انظر كلامهم على أبي عبيد القاسم ابن سلام، وعلى كتابه المشهور (الغريب المصنف) – مراتب النحويين ص ٩٣

عشرة أجزاء في (ما أغرب الكوفيون عن البصريين)، وكتاباً في ثمانية أجزاء في (ما أغرب البصريون عن الكوفيين)[٣].

تستطيع بعد هذا البيان أن تطمئن إلى شيئين:

١- ليست السياسة عاملاً في تكوين النحو الكوفي على ما كان عليه.

٢- إن الصورة التي في نفوس الناس قديماً وحديثاً عن حدة التجاذب والتدافع بين النحو الكوفي والنحو البصري مبالغ فيها.

٥- كتب الخلاف

عرفت أن النحاة – والبصريين منهم خاصة – قد انتزعوا علل النحو من كتب محمد ابن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة بالملاطفة والرفق (ص١٠٠). فاعلم الآن أن منهم من ألف في الخلاف بين النحاة، على نمط ما صنع الفقهاء في كتبهم التي ألفوها في الخلاف بين الحنفية والشافعية، وهذا ابن الأنباري يقول في مقدمة كتابه (الإنصاف في مسائل الخلاف) بصراحة:

((... سألوني أن ألخص لهم كتاباً لطيفاً يشتمل على مشاهير المسائل الخلافية بين نحويي البصرة والكوفة، على ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة، ليكون أول كتاب صنف في علم العربية على هذا الترتيب، وألف على هذا الأسلوب، لأنه ترتيب لم يصنف عليه أحد من السلف، ولا ألف عليه أحد من الخلف.. واعتمدت في النصرة على ما أذهب إليه من مذهب أهل الكوفة أو البصرة، على سبيل الإنصاف لا التعصب والإسراف...)).

وهكذا نجد تأثير العلوم الدينية واضحاً بارزاً في علوم اللغة كلها مادتها ومنهجها. وإذا رجعت إلى كتاب الاقترح للسيوطي وجدتهم يصرحون تصريحاً سافراً أيضاً بأنهم وضعوا للخلاف في النحو ولمناقشات مسائله أصولاً كأصول الخلاف بين الشافعية والحنفية.

أقدم من ألف في الخلاف ، فيما علمت، أحمد ابن يحيى ثعلب الكوفي (٢٩١هـ)، ولم نعرف هل أداره على أصول الخلاف الفقهي أو لا، وأيٌّ كان فإليك ما عثرت عليه من الكتب التي ألفت في الخلاف، مرتبة على وفيات أصحابها:

١- اختلاف النحويين – لثعلب (٢٩١ هـ)

٢- المسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون والكوفيون[١] – لابن كيسان (٣٢٠ هـ) وقد ردَّ فيه على ثعلب.

٣- المقنع في اختلاف البصريين والكوفيين – أبي جعفر النحاس (٣٣٨)[٢]. وقد رد فيه على ثعلب.

٤- الرد على ثعلب في (اختلاف النحويين) لابن درستويه (٣٤٧هـ).

٥- كتاب الاختلاف لعبيد الله الأزدي (٣٤٨هـ).

---

(3) معجم البلدان: (مادة بست). ولم أطمئن إلى كون هذين الكتابين في الخلاف النحوي، إذ لم ينقل عن ابن حبان تأليف في النحو، ولا تصدر لتدريسه، أما الأخبار فله بها ولوع ولـه فيها تأليف.

(1) في بغية الوعاة: (ما اختلف فيه البصريون والكوفيون) فأثبتنا الاسم كاملاً من الفهرست لابن النديم.

(2) بغية الوعاة وإرشاد الأريب ٢٢٨/٤، وفي بغية الوعاة: (المبتهج في اختلاف البصريين والكوفيين).

٦، ٧- الخلاف بين النحويين للرماني (٣٨٤هـ). وله كتاب آخر أخص هو (الخلاف بين سيبويه والمبرد).

٨- كفاية المتعلمين في اختلاف النحويين لابن فارس (٣٩٥ هـ)[١].

٩،١٠- الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين لأبي البركات الأنباري (٥٧٧) وقد طبع. وله كتاب آخر في الخلاف اسمه: (الواسط)، ذكره ابن الشجري في أماليه ونقل منه. (انظر ١٢٠/٢، ١٤٨، ١٥٤) من الأمالي لابن الشجري.

وقد استدرك ابن إياز على ابن الأنباري مسائل خلافية كثيرة فاتته في كتابه (الإسعاف) الآتي ذكره قريباً.

١١- التبيين في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين[٢] لأبي البقاء العكبري (٦١٦هـ).

١٢- الإسعاف في مسائل الخلاف – لابن إياز (٦٨١هـ)[٣] .

والظاهر أن هناك كتباً كثيرة في الخلاف، وأنه كانت لـه ضجة في المجالس والبيئات العلمية، وكان التعصب على أحد الفريقين بادياً في بعض هذه الكتب، ولذا استدرك صاحب (الإنصاف) الذي قدمت لك فقرة من مقدمته محترساً بقوله (على سبيل الإنصاف لا التعصب والإسراف).

المذهب البغدادي

كانت بغداد حاضرة الخلافة العباسية هي السوق التي كان يروج فيها العلم والأدب، فكان يرتحل إليها العلماء من الأقطار كافة، كلٌّ يحمل إليها طابع بلده الخاص، أو بتعبير آخر مدرسة بلده في الفن المختص به، فالتقت لكل علم وفن ألوان وطوابع مختلفات، احتكت وتمازجت وكان منها ألوان جديدة مطبوعة بالسمة البغدادية العامة. وذلك ما كان في النحو، فقد نشر الكوفيون فيها نحوهم وقصدها نحاة بصريون أيضاً، ونشأت طبقة جديدة في بغداد اختارت من المذهبين وكونت ما عرف بالمذهب البغدادي الذي أرخه ووصفه أبو الطيب اللغوي بهذه الكلمات الموجزات:

((فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريباً، وغلب أهل الكوفة على بغداد، وحدثوا الملوك، فقدموهم، ورغب الناس في الروايات الشاذة، وتفاخروا بالنوادر، وتباهوا بالترخيصات، وتركوا الأصول، واعتمدوا على الفروع، فاختلط العلم))[١].

---

(1) إرشاد الأريب ٨٤/٤ وذكر في بغية الوعاة باسم (اختلاف النحاة).

(2) في بغية الوعاة (التعليق في الخلاف). وقد رأيت هذا الكتاب مخطوطاً في دار الكتب المصرية وهو رسالة صغيرة في ١٨ ورقة ضمن مجموع رقمه (نحو ش ٢٨) أوله: هذا كتاب مسائل خلافية في النحو تكلم فيها باختصار على ١٤ مسالة.

(3) وممن تكلم على الخلاف ولم يخصص لـه كتاباً مستقلاً أحمد ابن جعفر الدينوري (٢٨٩هـ) ختن ثعلب، وقد مر ذكره ص ٨٤ فذكروا أنه الف كتاباً في النحو سماه (المهذب) وذكر في صدره اختلاف الكوفيين والبصريين وعزا كل مسألة إلى صاحبها، ولم يعتل لواحد منهم، ولا احتج لمقالته، فلما أمعن في الكتاب ترك الاختلاف ونقل مذهب البصريين – إنباه الرواة ٣٤/١ وبذلك يكون أول الخائضين في هذا الموضوع وفاة ممن ذكرناهم.

(1) مراتب النحويين ص٩٠ وانظر فيه أيضاً ص ١٠١ حيث يقول: ((بغداد مدينة ملك وليست بمدينة علم. وما فيها من العلم فمنقول إليها.. إلخ)).

وما أصدق ما قال هذا اللغوي الحلبي في تصوير الحال. ولما عرض أبو الطيب لأشهر أعلام المذهب البغدادي، وهو ابن قتيبة، نقده بما لا يخرج عمّا تقدم، فذكر الذين أخذ عنهم، ثم قال: ((إلا أنه خلط بحكايات عن الكوفيين لم يكن أخذها عن ثقات. وكان يتسرع في أشياء لا يقوم بها، نحو تعرضه لتأليف كتابه في النحو، وكتابه في تعبير الرؤيا، وكتابه في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله و (عيون الأخبار) و (المعارف) و (الشعر والشعراء) ونحو ذلك مما أزرى به عند العلماء، وإن كان نفق بها عند العامة ومن لا بصيرة له))[1].

وقد عقد ابن النديم لهذه الطبقة باباً عنوانه (من خلط بين المذهبين) عد منهم ابن قتيبة (٢٧٠هـ) وأبا حنيفة الدينوري (٢٩٠هـ) وابن كيسان (٣٢٠هـ) ومحمد ابن أحمد ابن منصور الوراق (٣٢٠هـ) ونفطويه (٣٢٣هـ)[2].

ونستطيع أن نزيد على هؤلاء: سليمان الحامض (٣٠٥هـ) وأبا علي الأصفهاني الملقب بلغدة، وابن السراج (٣١٦هـ) وأبا بكر ابن الخياط (٣٢٠) وأبا عبد الله الكرماني (٣٢٩هـ) وكلاب ابن حمزة العقيلي وغيرهم. وللكشي كتاب (تخليط المذهبين). والطابع البصري أغلب على ما يسمى بالمذهب البغدادي في الجملة كما هو الشأن في بقية الأمصار. ولا عجب في ذلك فإن الأصالة التي فيه فرضت نفسها كما يقولون، وكان مما أخذ من المذهب الكوفي مسائل اتجهوا فيها اتجاهاً أصح وأيسر.

وانتهينا إلى لزوم تصحيح التسمية الشائعة: المذهب البصري والمذهب الكوفي والمذهب البغدادي، وأن الأصوب أن يقال: نحاة بصريون، ونحاة كوفيون، ونحاة بغدادبون... إلخ.

يختلف سهم كل فريق من حيث النزعة السماعية والنزعة القياسية عن نصيب غيره كماً وكيفاً.

المدرسة الأندلسية

كان الشاميون في الجيش الأندلسي الفاتح جنداً متميزاً، فلما انقضى الفتح واستوطن الفاتحون الأندلس يعمرونها بحضارتهم وأخلاقهم وما أشرقوا به على الدنيا من قيم سامية وتعاليم نبيلة، تفرق جند الشام على أمصار الأندلس، فمن ثم يجد الممعن في تاريخ الأندلس سمات بارزة من آثار الشام في العادات والأخلاق والحضارة والمعالم والعمران، كما يجد زائر الأندلس اليوم بقايا مما ذكرت ماثلة للعيان حتى على سحن السكان اليوم وبعض عاداتهم الحميدة.

من ذلك العلوم الإسلامية التي انتقلت إلى الأندلس مع الجند الفاتح ومن أتى بعدهم، من شريعة وقرآن، وحديث ورياضيات وفلسفة[1].. إلخ.

---

(1) المصدر السابق ص٨٥

(2) الفهرست ص١١٥ وقال ابن النديم: ((كان ابن قتيبة يغلو في البصريين إلا أنه خلط بين المذهبين، وحكى في كتبه عن الكوفيين، وكان صادقاً فيما يرويه، عالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه، والشعر والفقه، كثير التصنيف والتأليف وكتبه في الجملة مرغوب فيها.)) اهـ. وانظر في هذا المصدر ترجمة نفطويه أيضاً.

(1) سنلم بملامح المدرسة الشامية في النحو في خاتمة هذه الكلمة.

وكان للنحو في الأندلس نشاط ملحوظ مرّ بشبه الخطوات التي سارها في المشرق، بدأ علماء العربية يدرسون النصوص الأدبية شعراً ونثراً دراسة فيها لغة وأدب ونحو وحديث وقرآن، ثم بدأت الفنون تتميز مع الزمن، وان أول كتاب دخل الأندلس من كتب النحو كتاب الكسائي[1]، ثم كتاب سيبويه؛ فلما دخل كتاب سيبويه عكف عليه الأندلسيون دراسة وحفظاً، واشتهر بحفظه عدد منهم ثم تولوه تدريساً وشرحاً وتعليقاً. فطبع نحو الأندلس بالطابع البصري في أغلب مسائله، ثم بدأ الأندلسيون محاولاتهم في التأليف، وعرف من أعلامهم أبو علي القالي مؤلف (الأمالي) و (البارع) و (فعلت وأفعلت) و (المقصور والممدود)، ثم ابن القوطية صاحب كتاب (الأفعال)، ((وكانت أذيع كتب النحو على أيام ابن حزم في المئة الخامسة تفسير الحوفي لكتاب الكسائي)) وتتابع علماء الأندلس في شرح كتب المشرق المشهورة وشرح شواهدها، واشتهر من نحاتهم في المئة السابعة ابن خروف (٦٠٢) وابن عصفور الإشبيلي (٦٦٢) والشلوبيني، بعد البطليوسي (٥٢١) وابن الطراوة والسهيلي (٥٨٣) من أعلام المئة السادسة.

وكان خاتمة علماء الأندلس اثنان رزقا الشهرة ورحلا إلى المشرق فبثا علمهما فيه، وكثرت تواليفهما، وكتب لها الذيوع حتى عصرنا هذا، عنيت الإمام ابن مالك الجياني صاحب الألفية، والإمام أبا حيان الغرناطي صاحب التفسير الكبير (البحر) و(الارتشاف) في النحو.

عكف علماء الأندلس إذن وطلابه على كتب البصريين و الكوفيين فدرسوهما واختاروا منهما، وتكون لهم مذهب خاص[1] كانوا فيه إلى مذهب البصريين أميل، وكذلك كان أكثر العلماء الوافدين عليهم من المشرق[2] أو النازحين إليه منهم لطلب العلم. وهكذا كان رأس العلوم عندهم النحو والشعر.

ويتحدث عن نزعتهم هذه ابن سعيد فيقول: ((النحو عندهم في نهاية من علوّ الطبقة))[3]. فلما نزح متأخروهم بعد النكبة، بعضهم إلى المغرب وبعضهم إلى الشام ومصر، نشروا علمهم في هذه الأقطار، وكان مذهبهم كذلك بصرياً في أكثره ... إلى أن جاء ابن مالك الجياني الأندلسي نزيل دمشق ثم ابن هشام الأنصاري بعده (ولم يكن أندلسياً) فجددا في النحو بعض التجديد، وكانا يميلان إلى التوسعة، فرجحا في بعض المسائل أقوال الكوفيين حين رأيا الرواية الصحيحة تؤيدهم، ولم يعتدّا بأقوال البصريين[1]، واستشهدا بالحديث، فكانا مجتهدين إلى حد ما، ذوي أثر بالغ في الدراسات النحوية، ومازالت كتبهما تدرس حتى الآن في معاهد العلم، وخدمت بشروح وحواش وتقريرات كثيرة.

---

(1) انظر تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٨٥ وما بعدها. أدخله جودي ابن عثمان العبسي المورووري الطليطلي الأصل، رحل إلى المشرق، وأخذ عن الكوفيين الرياشي والفراء والكسائي، مات سنة ١٩٨هـ - بغية الوعاة ص٢١٤.

(1) انظر تراجم أعلامهم، مثلاً ابن الوزان القيرواني (٣٤٦) ذكروا أنه أعلم من المبرد وثعلب وأنه بصري المذهب مع علمه بمذهب الكوفة، وأن له أوضاعاً في النحو واللغة. – انظر ترجمته في (إنباه الرواه للقفطي) ١٧٢/١ – ١٧٥.

(2) في ترجمة أبي علي القالي الوافد على الأندلس والذي أملى في جامع الزهراء بقرطبة كتابه العظيم (الأمالي) أنه أظهر فضل البصريين على الكوفيين، ونصر مذهب سيبويه على من خالفه من البصريين. انظر إنباه الرواة ٢٠٥/١.

(3) تاريخ آداب العرب للرافعي ٣٣/٣.

(1) كلمة أبي حيان – الاقتراح ص ١٠٠.

كنت رأيت قبل سبع عشرة سنة: أن النحو الأندلسي مر بشبه الخطوات التي سارها في المشرق، وأن طابعه الغالب الذي استقر طابع القياس الذي شرعه نحاة البصر، وأن الأندلسيين أشبهوا في هذا أيضاً الشاميين حين أضافوا إلى ذلك عناية بالغة بالسماع [٢].

فلما كنت في رحلة علمية تضمنت زيارة الأندلس، وطلب إليَّ القائمون على صحيفة (معهد الدراسات الإسلامية في مدريد) الإسهام بموضوع في مجلتهم، وكان السؤال المطوح: (هل في النحو مذهب أندلسي)[٣].

تساءلت: أليس هناك جديد أضيفه إلى ما تقدم عن نحو الأندلس؟.

إن رحلة قمت بها سنة ١٩٥٦م باحثاً في نفائس المخطوطات بالأسكوريال ومكتبات المغرب العامة والخاصة جعلني أتهيب الجواب. وأنا موقن أنه لن نصل إلى ما تطمئن إليه النفس حتى يُنشر قدر كاف من هذه النفائس المضنون حتى بأسمائها، وحتى يسهم في التعاون على ذلك أفاضل المغاربة وهم – على ما تحققت بنفسي – غير قليل، فيبحث كل فيما تصل إليه يده من كتب الفن يصفها ويصنفها وينشر ذلك مع ما ينتهي إليه من رأيٍ في هذه المسألة، فإذا شاعت هذه الآراء رجوت أن تضيء المذاكرة حولها نواحي مظلمة في تاريخ النحو. ولأحاول الآن قول شيء في الموضوع مع خفوت الشعاع وضياع المعلوم النزر في المجهول الغزير، ولا جود إلا بالموجود كما يقولون.

* * *

يعرف المطلعون عناية الأندلسيين بعلم النحو منذ الزمن الأقدم، ويحفظون كلمة ابن سعيد ((النحو عندهم في نهاية من علو الطبقة))[١] وليس في هذا مبالغة قط. ولقد حلا لي استشارة الأرقام فعمدت إلى (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة) للسيوطي، فأحصيت ما فيه من تراجم فإذا هو نحو من (٢٤٥٠) ترجمة، لعلماء من جميع الأقطار الإسلامية بين الصين وبحر الظلمات، ووجدت للأندلسيين بينها نحواً من (٧١٢) ترجمة، وهذه نسبة عالية جداً أن يبلغ في هذا المصدر علماء هذا القطر القليل المساحة قريباً من ثلث علماء العالم الإسلامي كله.

وما أكثر ما تتكرر هذه المدن والقرى الأندلسية في تراجمهم ونسبهم: باجه، شريش، بلنسية، جيان، مالقة، سرقسطة، دانية، بياسة، المرية، قلعة رباح، لبلة، لوشة، مورور، إستجة، الجزيرة، شلب، شذونة، وادي الحجارة، أشونة، بطليوس، رية ... إلخ أما الحواضر الكبرى كقرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة فحدث عن كثرة ورودها ولا حرج .

فإذا ألم بخاطرك ما لكل من هؤلاء العلماء الـ (٧١٢) من تواليف، دار رأسك من كثرتها وعرفت: لِمَ يتهيب الباحث من من إطلاق حكم في تراث لم يطلع منه على عشرة كتب من عدة آلاف؟ ومع هذا فإلقاء لمحات جزئية هنا وهناك في الموضوع

---

(2) في أصول النحو ص ١٨٢ من الطبعة الأولى (الجامعة السورية ١٩٥١).

(3) نشر بحثي بهذا العنوان في الصحيفة المذكورة (المجلدين السابع والثامن) سنة ١٩٥٩ – ١٩٦٠ بالنص المدرج هنا.

(1) نفح الطيب ٢٠٦/١ (مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٤٩).

لا يضر، بل هو تمهيد للوصول إلى النظرة المحيطة الشاملة على قدر الإمكان، وتجنيب لما يمكن أن يقع فيها الباحث من أخطاء شائعة .

لا يخطئ دارس مطولات النحو أن يقع على آراء الأندلسيين في جزئيات نحوية، فأسماء ابن خروف(٦٠٩ هـ) وابن عصفور (٥٩٧-٦٦٣هـ) والشلوبيني (٥٦٢-٦٤٥هـ) وابن الضائع (٦٨٠هـ) وغيرهم تذكر بين أسماء النحاة المشارقة حين عرض الآراء في الخلاف، إلا أن متصفحها لا يجد فيها ما يميزها من غيرها من التخريجات المختلفة المعروضة في القضية الواحدة أو بعبارة أخرى : ليس لآراء الأندلسيين هؤلاء سمات مدرسة خاصة .

ويريد بعض الناس أن يذكر ابن مالك (٦٠٠-٦٧٢هـ) وأبا حيان (٦٥٤-٧٤٥هـ) علمين بارزين لمدرسة أندلسية كان لها أثر واسع في النحو وتعليمه في المشرق، وهذا ظن يروج ابتداء ، لكنه لا يثبت عند النظرة الفاحصة الأولى:

فابن مالك خرج من الأندلس إلى المشرق صغيراً، ولم يذكروا لـه شيخاً في النحو غير الشلوبيني، قالوا: إنه قرأ عليه نحواً من ثلاثة عشر يوماً، فلما حل الشام سمع من بعض شيوخها، ولم يجد لـه أبو حيان بعد البحث ((شيخاً مشهوراً يعتمد عليه.... لأنه إنما أخذ هذا العلم من خاصة نفسه))، ((وصرف همته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية))[1].

وأمر أبي حيان قريب من أمر ابن مالك: خرج من الأندلس هارباً في شبيبته، وكان قرأ على بعض شيوخها، ثم أتم قراءته وزاول الإقراء في المغرب والمشرق. فإن اعتبرنا الشكل الصوري كان أثر التعليم الأندلسي في أبي حيان قليلاً وفي ابن مالك أقل بكثير، وإن اعتبرنا الجوهر- وحقٌّ اعتباره – وجدنا نحو هذين الرجلين في تواليفهما مشرقياً محضاً. أما كونهما ذوي أثر واسع في النحو وتعليمه في الشرق فهذا صحيح، ومرده إلى شخصيتهما لا إلى أندلسيتهما، فأسلوب ابن مالك في نظم مسائل العلم وشرحها وغيرته المخلصة الحارة في نشره وإقراءه أغريا عصرييه،وكان لهما أكبر الأثر في حياته، فانتفع الناس بعلمه، وما زال الله ينفع به إلى يوم الناس هذا. أما أبو حيان فآثار حواضر المشرق العلمية في كتبه أظهر من أن تخفى.

والشيء الذي يجوز أن يناقش هنا ما ذكروا من أن ابن مالك و ابن خروف شرعا الاستشهاد بالحديث الشريف والاحتجاج به في قضايا اللغة والنحو، فخالفا بذلك – زعموا – سنة من قبلهم من النحاة، وإذ كانا أندلسيين جعل بعضهم هذا الاحتجاج مذهباً أندلسياً.

وكل ذلك وهم لا يقره تاريخ الفن، ولعل الذي حداهم عليه كلمة أبي حيان في شرح التسهيل: ((إن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرين للأحكام من لسان العرب كأبي عمرو وعيسى ابن عمر والخليل وسيبويه من أئمة البصريين، والكسائي والفراء وعلي بن مبارك الأحمر وهشام الضرير من أئمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك)) اهـ. والتحقيق غير هذا: فالجوهري، وابن سيده، وابن فارس، وابن جني، وابن بري، ومن بعدهم من أصحاب المعجمات وكتب النحو، كلهم احتج

(1) بغية الوعاة ص ٥٣ (مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦هـ).

بالحديث، بل قال السهيلي: ((لا نعلم أحداً من علماء العربية خالف في هذه المسألة إلا ما أبداه الشيخ أبو حيان في شرح التسهيل وأبو الحسن الضائع في شرح الجمل وتابعهما على ذلك الجلال السيوطي))[1].

فنزعة الاحتجاج بالحديث إذن مشرقية قديمة، وإنما سار ابن مالك وابن خروف سيرة من قبلهما من الأئمة المتبوعين في المشرق. ومع جزئية هذه القضية ليس فيها مذهب أندلسي. وبذلك ننتهي من نقاش كل ما قيل في الموضوع لأقف وقفة جديدة مع ابن حزم في كتاب عرفه الباحثون العام الفائت.

أرقى صعداً في تاريخ النحو مئتي سنة قبل وفاة ابن مالك لأمعن في نص لابن حزم، وهو إمام أندلسي ما رأى المشرق قط، بل ما جاوز ((الزقاق)) إلى عدوة المغرب – فيما أذكر الآن – وهي منه على قاب قوس، فهو خالص الأندلسية.

ولا تعجب من وقوفي على ابن حزم ولم يذكر لـه كتاب في النحو ولا عرف بإمامة فيه، لأنه لا يلزم من اهتمامه بعلوم الشريعة وتركه فيها المؤلفات الجليلة الحسان التي سارت بذكرها الركبان ألا يكون من أولي الشأن في النحو، بل من أهل الرأي في أصوله، ومن غير البعيد لو تركت لـه الشريعة فراغاً أن يترك في النحو آثاراً أصيلة مبتكرة أيضاً.

وأيٌّ كان فقد عرج عرضاً في كتابه (التقريب لحد المنطق) على أحد الآساس التي بني عليها النحو فوضع تحته هذه المتفجرة الصغيرة[1].

((وأما علم النحو فـ (يرجع) إلى مقدمات محفوظة عن العرب الذين نريد[2] معرفة تفهمهم للمعاني بلغتهم، وأما العلل فيه ففاسدة جداً)).

وهذا إبطال للقياس جملة، لأن القياس ((حمل غير المنقول على المنقول في حكم لعلة جامعة بينهما)[1]، فإذا كانت العلل فاسدة فسد القياس حتماً إذ عليها بني. وقولة ابن حزم هذه تشريع لنحو جديد لو وجد لـه منظمون.

ومع أني لا أعقل أبداً نحواً لا قياس فيه، وددت لو تضافر بعد ابن حزم نحاة حاولوا أن يتركوا لنا مخططاً كاملاً لنحو (ظاهري) لا قياس فيه ولا تعليل، كما فعل هو حين استطاع أن ينفي عن الشريعة القياس والتعليل، فترك تراثاً ضخماً لمذهب متماسك متين وفق فيه إلى حد بعيد.

وهذا من طبيعة الأشياء، للفارق العظيم بين الشريعة و اللغة: فالله قد أكمل الدين، و لم ينتقل الرسول – عليه الصلاة و السلام – إلى الرفيق الأعلى حتى بين للناس كل ما يجب أن يعرفوه من حلال وحرام، أما اللغة فلا سبيل إلى حصرها في جمل

---

(1) دراسات في العربية وتاريخها للعلامة المرحوم السيد محمد الخضر حسين ص ١٦٨ (طبع دمشق ١٩٦٠م) وانظر فصل الاحتجاج بالحديث الشريف مستوفى في كتابي (في أصول النحو) ص ٤١ – ٥٤؛ طبعة ثانية.

(1) نقلت هذا من مخطوطة فريدة رقمها (٦٨٤٤) بالمكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة بتونس، حين زيارتي لها سنة ١٩٥٦م، واصطحبت معي صورة كاملة عن الكتاب بمعونة الأستاذ الجليل حسن حسني عبد الوهاب. وكان العزم أن أقوم بنشره، فسبقت إلى ذلك مكتبة الحياة في بيروت فنشرته العام الفائت ١٩٥٩ بتحقيق الدكتور إحسان عباس. والنص المنقول هنا من الورقة (٩٠) من المخطوطة بترقيمي، وفي ص ٢٠٢ من الطبعة الآنفة الذكر

(2) الكلمة غير ظاهرة النقط في الأصل المصور، وهي في المطبوعة (تزيد) ولا معنى لها هنا.

(1) (في أصول النحو) ٦٨.

لا يتعداها الناس إلى يوم القيامة، بل هي متجددة متوالدة كل لحظة منذ المتكلم الأول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولو حاول أحد من الأندلسيين البناء على الأساس الذي ألقاه ابن حزم لصح – مع شيء غير قليل من التسامح والتجوز – أن يكون من ذلك مذهب أندلسي إلى حد ما، أما رسالة ابن مضاء فليست هناك[٢].

قلت: ((مع شيء غير قليل من التسامح والتجوز)) و ((إلى حد ما)) لأن القول بضعف بعض العلل النحوية قديم متعارف في المشرق حتى جرى به المثل فقيل: ((أضعف من حجة نحوي)) على ما في هذا القول من مبالغة و خطأ في التعميم. وعلماء هذا الشأن أحاطوا بذلك وأشاروا إليه وعلموه، وصرح الخليل ابن أحمد (١٧٥ هـ) قبل ابن حزم بنحو ثلاثة قرون أنك لا تصل إلى ما تحتاج إليه من النحو حتى تتعلم ما لا تحتاج إليه. فاستضعاف العلل النحوية قال به كثيرون قبل ابن حزم فليس فيه بسابق، وإنما بالغ ابن حزم حين جعلها (فاسدة جداً) فعمم واشتط. والحقيقة الهادئة هي عند الذين صنفوا هذه العلل فجعلوا منها المقبول، ومنها الضعيف، ومنها الخيالي[١].

وفرق كبير بين إطلاق ابن حزم ومن قلده كابن مضاء، ومن تجرد للبحث والاستقراء بأناة وصبر، فجمع الأمثلة والشواهد بين يديه يمعن فيها ويفلسفها حتى انتهى إلى أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وما حملناه عليها))[١]، فالشك في العلل النحوية إذن ليس من صادرات الأندلس، بل تعاوره في أسلوب علمي جهابذة مشارقة منذ عهد الخليل، فليس فيه ما يسمى مذهباً أندلسياً من قريب ولا بعيد.

أما بعد، فأنا لا أقول بالإقليمية بالأدب فكيف تخطر لي في العلم، وهو الذي لا وطن لـه!؟ وإنما تتعاون على إنمائه جماهير من كل جنس وبلد، ولعل المسألة من مسائله بذلت في كشفها جهود كثيرة ضخمة من معلومين و مجهولين، بل ما أكثر الجنود المجهولين في العلم، وإنه ليقع في حدسي أنهم أكثر من المعروفين بما لا يخطر على بال. وهذه الآراء الجزئية التي عرضت لها قامت على ما وصل إلى علمي من آثار، وليست كلمة أخيرة، ومتى كان العلم كلمة أخيرة؟ وهل سكوت المصادر عن كتاب مطول لابن حزم في النحو قاطع على أنه لم يوجد؟ وهل جهلي

---

(2) وفاة ابن حزم سنة (٤٥٦هـ) ووفاة ابن مضاء تتأخر (١٣٦) سنة ورسالته في الرد على النحاة نشرها الدكتور شوقي ضيف سنة ١٩٤٧م. عمد فيها إلى ما وضعه الأقدمون من صيغ للتقريب على المتعلمين فجعل يدقق فيها حرفياً حين يرد عليهم قولهم مثلاً: إن العامل في رفع (زيد) من قولنا: (ضرب زيد) هو فعل (ضرب) بأن هذا غير صحيح.

والذي رفع (زيد) هو المتكلم، وأن القول: إن الألفاظ يحدث بعضها بعضاً باطل عقلاً وشرعاً لا يقول به أحد من العقلاء! (ص٨٧) وأفاض في فلسفة هذه البدهية بما لا طائل تحته، وإلا فهل يغيب على أحد أن المتكلم هو الذي يرفع وينصب على الحقيقة، وأن إسناد ذلك إلى العامل اللفظي مجاز وتقريب على المتعلمين، وهذا أسلوب شائع في جميع العلوم لا في النحو فقط. وهذه البدهية ذكرها عرضاً ابن جني، ونقلها عنه ابن مضاء نفسه في الصفحة المذكورة، بل تلك بديهة لكل مزاولي النحو تعلماً وتعليماً.

وفي الرسالة بعد، نظرات جزئية في مسائل بعضها سائغ، لكنه انتهى به الأمر إلى أن ناقض نفسه وإمامه ابن حزم فقال بالعلل الأولى، ونفي العلل الثواني والثوالث، وليس هذا مقام التفصيل في نقد كتابه.

(١) انظر في العلل ص ١٠١ من كتابي (في أصول النحو).

(1) كلمة ابن جني – الخصائص ١/ ٢٥٠ وما بعدها (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٢ بتحقيق الأستاذ محمد علي النجار).

أنا بما في خبايا المكتبات في الأندلس والمغرب وحتى المشرق من آثار نحوية يقنعني بأنه ليس هناك مذهب أندلسي في النحو؟.

إن الوصول إلى شيء جديد نركن إليه موقوف على ظهور آثار جديدة، وما قدمت من أحكام شخصية صحيح اعتماداً على ما وصل إلى اطلاعي وما أقله، وكل مخطوط جديد ينشر حافز على إعادة النظر واستئناف المحاكمة.

فهل لإخواننا المغاربة عامة ومغربهم – كما تحققت في رحلتي القصيرة – متحف مجهول، أن يواصلوا السعي فرادى وجماعات في الكشف عن مخبآتهم والتعرف بها؟ وهل لدارسي النحو منهم خاصة أن يعكفوا على نشر النافع من آثاره فيملؤوا ثغراً في ميادين البحث ما زالت خالية؟.

ومن يدري؟! فلعلنا في المستقبل لا نكتفي بالقول: ((إن النحو الأندلسي قياسي مع نزعة سماعية)) كما هو في المشرق، بل نؤكد واثقين بما سيظهر من خصائص وسمات تنتزع من مخطوطات يكشف عنها أن هناك في النحو (مذهباً أندلسياً حقاً) بكل ما في كلمة (مذهب) من مقومات. ا هـ.

خاتمة:

يرى الباحث بعد التقصي أنه قد تضم البلدة الواحدة نحاة من منازع مختلفة، يطغى عليها أحياناً مذهب أهل البصرة، وأحياناً مذهب الكوفة، تبعاً لنزعة العالم ذي الأثر فيها. فهذه (حلب) من مدن الشام ضمت عالمين مختلفي النزعة كل الاختلاف في زمن واحد: ابن جني رأس مدرسة القياس الذي كان المذهب البصري إمامه الأعظم، وابن خالويه الكوفي المنزع صاحب كتاب (ليس في كلام العرب)، الذي اتبع فيه السماع نافياً من اللغة ما جوزه (فلسفة) نحاة البصرة، و بعدهما كان في الشام المعري الذي كان واسع الرواية، سماعياً إلى أبعد حدود السماع، يضيق بنحو البصرة الذي كان في أيامه طافحاً بالجدل والقياس والتعليل[1]. وهذه النزعة ظاهرة في كتبه كل الظهور، وحسبك أن تلم برسالة الملائكة لترى مبلغ عنايته بالرواية والسماع، أو أن تمعن في (رسالة الغفران) لترى نقمته على البصريين خاصة من حيث كانوا أهل القياس[1].

كتب ونصوص

(١) سيبويه: (الكتاب).

---

(1) انظر في ذلك بحثاً قيماً للمرحوم الأستاذ إبراهيم مصطفى نشره في (المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري) من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ص ٣٦٢ – ٣٧٤.

(1) الظاهر أن مذهب الكوفة انتعش في الشام حيناً من الدهر، وعلة ذلك عندي اعتماده على كثرة الرواية والسماع، والشاميون (أثريون سلفيون) إلى حد بعيد، يحترمون السماع عن العرب كثيراً شأنهم في اللغة والنحو كشأنهم في علوم الشريعة، فيهم أخصب علم القراءات وهو سماع محض، ولا تنس أن أكثر أئمة البصرة والكوفة هو قراء أيضاً، وعندهم أخصب فن الحديث وهو أيضاً سماع ومض وبقي حياً نشيطاً إلى زمن قريب، عنوا عناية بالغة به وبسماعاته وطبقات رجاله وإحصاء طرقه، ونبغ فيهم كبار الأئمة فيه، ولا تزال دار كتبهم الظاهرية بدمشق أغنى مكتبات الدنيا اليوم في فن الحديث، وكثير من مخطوطاتها بخطوط مؤلفيها المحدثين أنفسهم لا يدانيها في ذلك مكتبة في العالم. وفيها عدة دور (مدارس) للحديث ولقراءات القرآن. نزعة عرفوا بها، واستأنس إذا شئت بهذه الجملة قرأتها أخيراً في كتاب (تاريخ العرب قبل الإسلام) للباحث الفاضل جواد علي:

((يغلب على التلمود الفلسطيني طابع التمسك بالرواية والحديث، وأما التلمود البابلي فيظهر عليه الطابع العراقي الحر، وفيه عمق التفكير وتوسع في المحاكمة وغنى في المادة، وهذه الصفات غير موجودة في التلمود الفلسطيني)) ٢٤/١. ومهما تظن من أثر لحب البلد في هذا الكلام فما ذلك بمانعك الاستئناس به إلى حد ما، ولولا عزوفي عن التعميم وإطلاق الأحكام لشددت به ما أذهب إليه من أثرية (سلفية) الشاميين بعد التثبيت من صحة الحكم.

(٢) ابن جني: (التصريف الملوكي) و(المنصف شرح التصريف للمازني).
(٣) الزمخشري: (المفصل) و شرحه لابن يعيش.
(٤) ابن الأنباري: (لمع الأدلة) و(الإنصاف في مسائل الخلاف).
(٥) ابن مالك: (الألفية) و شرحها لابن عقيل، و شواهد التوضيح.
(٦) ابن هشام: (مغني اللبيب) و(شرح شذور الذهب).

(١)
(الكتاب) لسيبويه
- ١٨٠ هـ -

كان سيبويه تلميذ الخليل الخاص، استوعب علمه، وورث ملكته في القياس والابتكار، ولزم طريقته في التوثق مما يسمع عن العرب، وأودع هذا كله (الكتاب) الذي لولاه لضاع علم الخليل في النحو والصرف.

ولم يقتصر سيبويه على علم الخليل بل جمع إليه علم كثير من الفحول المشهورين في عصره، فتتلمذ على أبي عمرو ابن العلاء، وعلى يونس ابن حبيب، وعلى أبي الخطاب الأخفش، وأبي زيد الأنصاري وغيرهم، و إذا لم يسم من ينقل عنه اكتفى بوصفه مثل (حدثني من أثق بعربيته) أو (أنشدناه أعرابي من أفصح الناس)، أما شواهده فكلها معزوة إلى من يحتج به من العرب، وأحصوا في (الكتاب) ألفاً وخمسين شاهداً معروفاً إلا خمسين منها، ومع ذلك جرى العلماء على الثقة بها مع عدم عزوها لاقتناعهم بأن سيبويه يتحرى في الأخذ والنقل، فجعلوا نقله لهذه الشواهد بمنزلة عزوها إلى من يحتج بلغته، لأن التحري والوثوق من عربية من ينقل عنه سمة البصريين عامة ومدرسة الخليل على التخصيص.

ولسيبويه طابعه المتميز به وشخصيته التي يحس بها قارئ كتابه، فقد استوعب ما نقل ودرسه وتمثله، وناقشه وحكم عليه، فكثيراً ما تجد في كتابه: قال فلان: كذا، والقياس كذا، وقال النحاة: كذا، والصواب خلافه، وحسبك أن تجد باباً خاصاً نقد فيه النحاة في بعض ما ذهبوا إليه.

((وذلك قولك: ويحٌ لـه وتبٌّ، وتباً لك ووَيحاً، فجعلوا التب بمنزلة الويح، وجعلوا (ويح) بمنزلة التب فوضعوا كل واحد منهما في غير الموضع الذي وضعته العرب ... إلخ))[1].

و جعل سيبويه عنوان هذا الباب مشعراً بنقد صنيعهم فقال: ((هذا باب استكرهه النحويون، وهو قبيح، فوضعوا الكلام على غير ما وضعت العرب.))

و أسلوب سيبويه هذا هو الطابع الأصيل للمذهب البصري الذي مر بك الكلام عليه.

وسبق أن عرفت أن سيبويه ينقل كلام المخالفين نقلاً موضوعياً معلقاً عليه حيناً، ومكتفياً بإثباته حيناً آخر، وأنه إذا قال: ((قال الكوفي)) فإنما يعني أبا جعفر الرؤاسي، كما أن (قال) إذا لم يذكر فاعلها إلى جانبها ففاعلها الخليل لكثرة النقل عنه.

درج القدماء على استعظام كتاب سيبويه وتشبيههم لدراسته بركوب البحر، وأن أتباعه يفاخرون به، و خصومه يقرؤونه سراً على تلاميذ سيبويه ولا يجاهرون... وذلك مشعر بأنهم موقنون أن المعرض عنه حارم نفسه من خير كثير لا تسمح نفس العارف بالزهد به عادة.

---

(1) الكتاب ١/ ١٦٧ – طبعة بولاق ١٣١٧ هـ.

في الكتاب شواهد كثيرة من حر الشعر العربي، ومن أوثق ما نقل عن العرب من نثر، وعبارة سيبويه عربية جيدة موجزة جزلة تلحقها بالسماع الذي يحتذيه البلغاء.

وعلى الدارس اليوم أن يعرف أن ترتيب الكتاب وتبويبه يختلفان عما ألف في العصور المتأخرة من ترتيب وتبويب للفرق الزمني والبيئي، فالبيئة التي ألف لها الكتاب أرفع جداً من حيث الثقافة العربية التي ألفت لها الكتب في العصور المتتالية حتى اليوم. وهذا الفارق لا بد من ملاحظته ليحفزنا على الدأب والتؤدة وحسن الاستعداد لنستفيد من آثار الفحول.

في أيدي الناس اليوم الطبعة الأميرية (ببولاق سنة ١٣١٧ هـ) في جزأين جاوزا (٩٠٠) صفحة من القطع الكبير، على هامشهما تعليقات مفيدة من الشرح المشهور لأبي سعيد السيرافي من رجال المئة الرابعة (٣٦٨ هـ)، وفي حواشيهما شرح الشواهد للأعلم الشنتمري الأندلسي من رجال المئة الخامسة (٤٧٦) و إليك الموضوعات الهامة كما وردت متسلسلة:

في الجزء الأول: الكلمة – فاعل اللازم والمتعدي من الأفعال وأشباهها – أسماء الأفعال – إضمار الفعل – المصادر المنصوبة – الحال – المفعول فيه – الجر والتوابع – عمل الصفات – بعض المنصوبات – المبتدأ والخبر – النكرة والمعرفة – الابتداء – إن وأخواتها – كم – النداء – الندبة – الترخيم – لا التبرئة – الاستثناء – الضمائر – أي – من – ذا – نواصب المضارع وجوازمه – أسماء الشرط – توكيد الأفعال – إن وأن – (أم) و(أو).

في الجزء الثاني: ما ينصرف وما لا ينصرف – النسب – التصغير – حروف القسم – نونا التوكيد – إدغام المضعف – المقصور والممدود – تمييز الأعداد – التكسير – أوزان المصادر – صيغ الأفعال ومعاني الزوائد – زنة المصادر ذوات الزوائد – أسماء الأماكن – اسم الآلة – ما أفعله – أحكام حلقي العين – الإمالة – هاء السكت مع ألف الوصل - الوقف - هاء الضمير - الترنم - حروف الزوائد – القلب (الإعلال) – وزن أفعلاء – التضعيف – الإدغام ...- ما خفف شذوذاً.

هذا، ومن ألف الدراسة في كتب النحو الحديثة والعصور التي قبلها يجد شيئاً من الصعوبة في البحث عن مطلوبه في كتاب سيبويه لاختلاف تبويبه كما أسلفت. ويحتاج إلى قليل من الألفة للكتاب حتى يأنس بأسلوبه، حتى إذا مضى شوطاً في صحبته انقلبت صعوبته متعة ولذة إذا كان ذا إلمام كاف وشغف بالفن.

وإليك نموذجين اخترتهما لقصرهما، الأول ما نسميه: (العطف على المحل) والثاني لاسم كان واسم ليس إذا كانا ضميري شأن، وستلاحظ كيف اختلف المصطلح و الأداء معاً:

هذا باب ما تجريه على الموضع لا على الاسم الذي قبله

وذلك قولك: ((ليس زيد بجبان و لا بخيلاً)) و((ما زيد بأخيك ولا صاحبك)) والوجه فيه الجر لأنك تريد أن تشترك بين الخبرين، وليس ينقض إجراؤه عليه المعنى، فأن يكون آخره على أوله أولى، ليكون حالهما في الباء سواء كحالهما في

غير الباء مع قربه منه. وقد حملهم قرب الجوار على أن جروا (هذا جحر ضبٍّ خربٍ) ونحوه، فكيف ما يصح معناه؟.

ومما جاء من الشعر في الأجراء على الموضع قول عقيبة الأسدي:

معاوي إننا بشرٌ فأسجح | فلسنا بالجبال ولا الحديدا
أديروها بني حربِ عليكم | ولا ترموا بها الغرض البعيدا[1]

لأن الباء دخلت على شيء لو لم تدخل عليه لم يخل بالمعنى ولم يحتج إليه ولكان نصباً. ألا تراهم يقولون: (حسبك هذا) و(بحسبك هذا) فلا يتغير المعنى، وجرى هذا مجراه قبل أن تدخل الباء لأن (بحسبك) في موضع ابتداء. ومثل ذلك قول لبيد:

فإن لم تجد من دون عدنان والداً | ودونَ معدٍّ فلتزَعك العواذل

والجر الوجه. ولو قلت: ((ما زيد على قومنا ولا عندنا)) كان النصب ليس غير، لأنه لا يجوز حمله على (على)، ألا ترى أنك لو قلت: ((... ولا على عندنا)) لم يكن، لأن (عندنا) لا يستعمل إلا ظرفاً، وإنما أردت أن تخبر أنه ليس عندكم. وقال: ((أخذتنا بالجود وفوقه)) لأنه ليس من كلامهم (وبفوقه). ومثل (ودون معد) قول الشاعر وهو كعب ابن جعيل:

ألا حيّ ندماني عميرَ بنَ عامر | إذا ما تلاقينا من اليوم أو غدا

وقال العجاج:

كشحاً طوى من بلد مختارا | من يأسة اليائس أو حذارا[1]

وتقول: ((ما زيد كعمرو ولا شبيهاً به)) و ((ما عمرو كخالد ولا مفلحاً)) النصب في هذا جيد، لأنك إنما تريد (ما هو مثل فلان. ولا مفلحاً) هذا معنى الكلام. فإن أردت أن تقول: ((ولا بمنزلة من يشبهه)) جررت نحو قولك: ((ما أنت كزيد ولا شبيه به)) فإنما أردت (ولا كشبيه به). وإذا قلت: ((ما أنت بزيد ولا قريباً منه)) فإنه ليس ها هنا معنى بالباء لم يكن قبل أن تجيء بها، وأنت إذا ذكرت الكاف تمثل،

---

(1) كذا رواه سيبويه، والبيت من مقطوعة مجرورة الروي وبعده:

أكلتم أرضنا فجرزْتموها | فهل من قائمٍ أو من حصيدِ

واعتذر الأعلم الشنتمري عن سيبويه بقوله: ((يجوز أن يكون البيت من قصيدة منصوبة غير هذه المعروفة، أو يكون الذي أنشده رده إلى لغته فقبله منه سيبويه منصوبة، فيكون الاحتجاج بلغة لا بقول الشاعر)) اهـ.

(1) الكشح: الجنب أو الخصر. يقال لمن أضمر شيئاً طوى كشحه عليه. والبيت في وصف ثور وحشي أو حمار وحشي خرج من بلد إلى بلد خوفاً من صائد أحس به، أو يأساً من مرعى كان فيه.

ويكون (قريباً) ها هنا إن شئت ظرفاً، وإن لم تجعل (قريباً) ظرفاً جاز فيه الجر على الباء والنصب على الموضع[1].

هذا باب الإضمار في ليس وكان

كالإضمار في (إنّ) إذا قلت: ((إنّه مَنْ يأتنا نأتِهِ)) ((إنه أمة الله ذاهبة)). فمن ذلك قول بعض العرب: ((ليس خلق الله مثله)) فلولا أن فيه إضماراً لم يجز أن تذكر الفعل ولم تعمله في اسم، ولكن فيه من الإضمار مثل ما في (إنه). وسوف يبين حال هذا الإضمار كيف هو إن شاء الله. قال حميد الأرقط:

فأصبحوا والنوى عالي معرَّسهم	وليس كلَّ النوى تلقي المساكين[2]

فلو كان (كلَّ) على (ليس) ولا إضمار فيه لم يكن إلا الرفع في (كل)، ولكنه انتصب على (تلقي)، ولا يجوز أن نحمل (المساكين) على (ليس) وقد تقدمت فجعلت الذي يعمل فيه الفعل الآخر يلي الأول وهذا لا يحسن. لو قلت: ((كانت زيداً الحمى تأخذ)) أو ((تأخذ الحمى)) لم يجز، وكان قبيحاً ومثل ذلك في الإضمار قول العجير، سمعناه ممن يوثق بعربيته:

إذا متُّ كان: الناس صنفان شامتٌ	وآخر مُثْنٍ بالذي كنتُ أصنعُ

أضمر فيها. و قال بعضهم: ((كان أنت خيرٌ منه)) كأنه قال: ((إنه أنت خير منه)). ومثله: ((كادَ تَزيغ قلوب فريق منهم)) [التوبة: ١١٧/٩]. وجاز هذا التفسير لأن معناه: (كادت قلوب فريق منهم تزيغ) كما قلت: ((ما كان الطيبُ إلا المسلك)) على إعمال (ما كان الأمر: الطيب إلا المسلك) في ز هذا إن كان معناه (ما الطيب إلاّ المسك)، وقال هشام أخوذي الرمة:

هي الشّفاءُ لدائي لو ظَفِرتُ بها	وليس منها شفاءُ الدَّاء مبذول

ولا يجوز هذا في (ما) في لغة أهل الحجاز، لأنه لا يكون فيه إضمار. ولا يجوز أن تقول: ((ما زيداً عبد الله ضارباً)) و((ما زيداً أنا قاتلاً)) لأنه لا يستقيم كما لم يستقيم أن تقدم في (كان) و(ليس) ما يعمل فيه الآخر، فإن رفعت الخبر حسن حمله على اللغة التميمية كأنك قلت: ((أما زيداً فأنا ضارب)) كأنك لم تذكر (ما)، وكأنك قلت: ((زيداً أنا ضارب)). وقال مزاحم العقيلي:

وقالوا: تعرّفْها[1] المنازلَ من منىً	وما كلَّ من وافى منىً أنا عارف

---

(1) الكتاب ٣٣/١

(2) قال الشنتمري: لما أصبحوا ظهر على معرسهم، وهو موضع نزولهم نوى التمر وعلاه لكثرته، على أنهم لحاجتهم لم يلقوا إلا بعضه. وذا إشارة إلى كثرة ما قدم لهم منه وكثرة أكلهم لـه.

(1)حذف حرف الجر، ولأصل: تعرفها في المنازل.

وقال بعضهم: وما كل من وافى منىً أنا عارف

لزم اللغة الحجازية فرفع كأنه قال: ((ليس عبد الله أنا عارف)) فأضمر الهاء في (عارف) وكان الوجه: (عارفه) حيث لم يعمل (عارف) في (كل)، وكان هذا أحسن من التقديم والتأخير، لأنهم قد يدعون هذه الهاء في كلامهم وفي الشعر كثيراً، وذلك ليس في شيء من كلامهم، ولا يكاد يكون في شعر، وسنرى ذلك إن شاء الله[1].

(1) الكتاب ٣٥/١